الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو بكر بلقايد
UNIVERSITÉ DE TLEMCEN
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي

الموضوع:

مالك بن نبي أديبا

إعداد الطالب (ة): بلميمون إيمان
إشراف: أ.د.حياة عمارة

لجنة المناقشة		
أ.الدكتورة	شافع بلعيد نصيرة	رئيسا
أ.الدكتورة	حوماني ليلى	ممتحنا
أ.الدكتورة	حياة عمارة	مشرفة مقرّرة

العام الجامعي : 2017-2016/1439-1438

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

الإهداء

أهدي ثمرة عملي إلى قرّة عيني و سندي أمّي الغالية

إلى من بنى أحلامه على آمالنا و آنار لي سبيل العلم أبي العزيز.

و إلى إخوتي الّذين لم يبخلوا علي بكثير من الدعاء (وفاء ، أحلام ، أسامة)

و كذلك إلى خطيبي (مهدي) و عائلته المحترمة.

و خاصة إلى الأستاذة المحترمة الدكتورة عمارة حياة و إلى صديقتي العزيزة رشيدة

و إلى كل من ساندني و لو بكلمة طيبة

إليكم جميعا أهدي ثمرة جهدي.

شكر و عرفان

الحمد لله الّذي أعانني على كتابة هذا البحث و انجازه و صلى الله و سلم على عبده المصطفى الّذي بذكره تتم الصالحات و بعد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم« لا يشكر الله من لا يشكر الناس»

فإنني أتوجه بالشكر لكل من كان عونا لي في انجاز هذا البحث و إتمامه على هذه الصورة الّتي أرجو أن تكون مرضية.

و أخص بالشكر الأستاذة عمارة حياة على هذه الرسالة، لما قامت به من قراءة و متابعة و توجيه رغم ضيق وقتها، و كثرة أشغالها و لما تتسم بها من سعة الصدر و الأفق، فلها من الثواب الجزيل.

كما أتقدم بعظيم الشكر لكل الإخوة الّذين وقفوا بجانبي أثناء إعداد بحثي

الفهرس

فهرس الموضوعات

إهداء

شكر و عرفان

مقدمة ..... أ

مدخل : نشأة الرواية الجزائرية 2

الفصل الأول:حياة مالك بن نبي

المبحث الأول:نشأته و تعليمه..... 07

المبحث الثاني :أعماله و مؤلفاته 21

الفصل الثاني:الملامح الأدبية في إنتاج مالك بن نبي: نماذج من مؤلفاته

المبحث الأول :رواية لبّيك 26

المبحث الثاني:مذكرات شاهد القرن 36

الفصل الثالث:الخصائص الفنية لأدب مالك بن نبي

المبحث الأول :الموضوعاتية (المضمون) 44

أولا:رواية لبّيك 44

ثانيا:مذكرات شاهد القرن 46

المبحث الثاني :قراءة الجوانب الفنية 49

أولا:رواية لبّيك 49

ثانيا:مذكرات شاهد القرن 58

خاتمة 63

قائمة المصادر و المراجع 66

مقدمة

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، و الصّلاة و السلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد و على آله و صحبه و من اتبع هديه إلى يوم الدين أما بعد:

قد كثرت الأبحاث و الدراسات حول شخصيات كثيرة من المفكّرين و الأدباء الّذين عاشوا في القرن العشرين لكن و مع ذلك فلا يزال حقل البحث مفتوحا لتسليط الضوء على بعض الشخصيات الّتي تحتاج إلى مزيد من الدراسة بالنظر لآثارها الفكرية و الأدبية.

لعلّ مالك بن نبي يعدّ واحدا من أبرز هؤلاء المفكّرين الّذين يحتاجون إلى أبحاث تميط اللّثام عن أعمالهم القيمة، لا سيما تلك الّتي لها طابع أدبي.

الدارس لفكر مالك بن نبي يكتشف لا محالة أنه دون معاصريه من المفكّرين المسلمين أولى اهتماما كبيرا و عميقا للإنسان المسلم، و تابع همومه حللّ أبعاد الظّواهر و المشكلات الّتي تحيط به، مقترحا الحلول في إطار إسلامي واضح. و إجمالا كان بن نبي في فكره و وعيه يشكّل بمفرده مدرسة قائمة بذاتها، هذه« المدرسة » الّتي خلّفها المفكر قد حظيت باهتمام الباحثين و المفكّرين الّذين اتّخذوا منها منهجا لإرساء دعائم الحضارة ، و النهوض بالأمّة.

قد طبع هذه الدراسات الطابع العلمي المحض، دون التطرّق إلى أدبيّة نتاج مالك بن نبي ما جعلني أفكّر في تخصيص موضوع مذكرتي لهذا المجال"الأدب في آثار مالك بن نبي" و أنا أبتغي من وراء ذلك التعريف بأدب هذا المفكّر الجليل. و قد يعدّ مالك بن نبي من أهم المفكّرين في الجزائر و العالم العربي ككل، و من حقّ الناشئة أن تستفيد من أفكاره الواعية، و أن تأخذ العبر و الدروس من صفحات حياته و جهاده و سيرته.

لمالك بن نبي محاولات في ميدان الأدب، و ضمّنها أفكاره و منهجه الحضاري.

على الرغم من جهود الباحثين في تناول أدبية مالك بن نبي، بالدراسة و التحليل فإنه يبقى في حاجة إلى المزيد من الدراسات في هذا المجال.

قد أعانتني بعض تلك الدراسات و النتاجات—على قلتها- في بحثي هذا و من أهّمها:

-مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن القسم الأول (الطفل) و القسم الثاني (الطالب).
-مالك بن نبي ، لبّيك حج الفقراء ترجمة خوليف زيدان.
-ابن إبراهيم الطيب ، مالك بن نبي و ابن خلدون مواقف و أفكار مشتركة.

-أسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا.

إن طبيعة الموضوع فرضت عليّ الإجابة عن الإشكالية التالية:

ما الّذي أضافه بن نبي في حقل الأدب؟

هل غلبت على أعماله الطابع الأدبي أم الفكري؟

للإجابة عن السؤالين اعتمدت المنهج الوصفي و المنهج التحليلي أمّا خطّة البحث فقد تضمّنت مقدمة و خاتمة، توسطهما مدخل ثم ثلاثة فصول:

تحدثت في المدخل عن نشأة الرواية الجزائرية، فيما تناولت في الفصل الأول حياة مالك بن نبي، خصّصت الفصل الثاني الملامح الأدبية لإنتاج مالك بن نبي مع نماذج من مؤلفاته، و كان الفصل الأخير دراسة تطبيقية لتلك النماذج، حيث استوقفتنا الناحية الموضوعاتية و الفنيّة فيها.

كأي بحث فقد اعترضتني عدّة صعوبات لعلّ أبرزها قلة الوقت بسبب الضغط الدراسي في السداسي الأول ضف إلى ذلك شحّ الكتب الّتي تعالج موضوع مذكرتي و مع ذلك فقد حاولت جهدي لإتمام المذكرة ، و قد أعانتني في ذلك الأستاذة المشرفة الّتي لم تبخل علّي بالمساعدة و التصويب فجزاه الله عنيّ خير جزاء و الله وليّ التوفيق.

بلميمون إيمان

تلمسان في : 2017/04/30

مدخل

نشأة الرواية الجزائرية

المدخل:نشأة الرواية الجزائرية:

بدأت الرواية الجزائرية في السبعينيات من القرن الماضي إلاّ أن إرهاصاتها الأولى كانت في الأربعينيات من القرن ذاته، حيث وجدت بذور ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، يمكن أن نلحظ فيها بدايات ساذجة للرواية العربية الجزائرية سواء في موضوعاتها أو في أسلوبها و بنائها الفني،كتبها "أحمد رضا حوحو" سماها "غادة أم القرى" ثمّ تلتها رواية كتبها "عبد المجيد الشافعي" أطلق عليها عنوان "الطالب المنكوب" فهي ساذجة المضمون مثل طريقة التعبير فيها[1].

بعد ذلك كانت تقاطعات روايات أخرى ظهرت في الخمسينيات، منها "الحريق" للكاتب" نور الدين بوجدرة" ثم رواية أخرى ظهرت في الستينيات عنوانها "صوت الغرام" للكاتب "محمد المنيع". ثمّ توقف هذا النوع من الروايات، و بقي الفن القصصي المكتوب بالعربية يسير على وتيرة ثقيلة إلى أن جاء "الطاهر وطار" و حاول إخراجه _بما فيه الرواية_ من التابوت اللغوي و المضامين المستهلكة مع بداية السبعينيات الّتي شهدت تغيّرات قاعدية كبيرة. فكانت الولادة الثانية و الأكثر عمقا رواية "اللاز" إنجازا فنيا جريئا و ضخما، يطرح بكلّ واقعية وموضوعية القضايا الوطنية بعيدا عن الشعارات الّتي تحتمي وراءها المواهب الهزيلة، الشيء نفسه عني به "مرزاق بقطاش" في روايته "طيور في الظهيرة" فقد حاول أن يغطي فنيا "إنجازات الثورة الوطنية و يرسم بريشة دقيقة معاناة الطبقة المسحوقة إبان الاستعمار الفرنسي و الهموم الكبيرة الّتي يعيشها الأطفال."[2]

بذلك أطلق على فترة السبعينيات 1980/1970،عقد الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية ،فقد شهدت هذه الفترة وحدها ما لم تشهده الفترات السابقة من تاريخ الجزائر على الإطلاق من الإنجازات المختلفة في شتى الميادين، فكانت الرواية تجسيدا لذلك كلّه. و تعداد بسيط للأعمال الروائية الّتي كتبت في هذه الفترة يبرز بشكل واضح هذه الحقيقة:

- ✓ "نار و نور"،"دماء و دموع"،"الخنازير" عبد المالك مرتاض.

[1]-عبد الله ركيبي،تطور النثر الجزائري ،الجزائر ،المؤسسة الوطنية للكتاب،1983،ص200،199.

[2]-واسيني الأعرج،اتجاهات الرواية العربية في الجزائر،الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب،1986،ص90.

- ✓ "اللاز"،"الحوات و القصر"،عرس بغل"،"العشق و الموت في الزمن الحراشي" الطاهر و طار.
- ✓ "قبل الزلزال"علاوة بوجادي.
- ✓ "طيور في الظهيرة"مرزاق بقطاش.
- ✓ "ريح الجنوب" "نهاية الأمس"،"بان الصبح"،عبد الحميد بن هدوقة.

غيرها من الروايات الأخرى الّتي كانت النتاج الفني الطبيعي لهذه الفترة التاريخية[1] و لما لحقها من الفترات، حيث عرفت الرواية ازدهارا كبيرا و انتعاشا ملموسا. و بالعودة إلى الخطوات الأولى إلى هذا الفنّ النثري الحديث، تستوقفنا بعض المحاولات الروائية الّتي سجلها لنا التاريخ فبالإضافة إلى رضا حوحو و الشافعي، وُجدت ثلّة من الأدباء حاولوا أن ينقلوا معاناة و آلام الشعب الجزائري عن طريق الرواية الّتي بدأت مع الواقع السياسي و نقلت مختلف التغييرات الّتي طرأت على المجتمع بحكم الظروف و العوامل الّتي أسهمت في إحداث هذا التغيير. و من الملاحظ أن الرواية الجزائرية قد صبغت بصبغة ثورية خاصة الثورة ضد الاستعمار كما سايرت النظام الاشتراكي و هذا ما نجده في عقد السبعينيات، و دخلت الرواية فيما بعد مرحلة جديدة فيها انحطاط و انهزام ، إذ انطلق الكاتب من الواقع الّذي عاشه و عايشه في زمن الأزمة فاصطلح عليه ب"أدب الأزمة" [2]،الّذي هو أدب استعجالي لم يأخد حظه في الكتابة و النشر و التطور بسبب الظروف الاجتماعية.

بظهور هذه الأعمال أمكننا الحديث عن تجربة روائية جزائرية جديدة متقدمة، إذ أن العقد الّذي تلا الاستقلال مكّن الجزائر من الانفتاح الحر على اللغة العربية، و جعل الأدباء يلجأون إلى الكتابة الروائية للتعبير عن تضاريس الواقع بكل تفاصيله و تعقيداته، سواء أكان ذلك بالرجوع إلى فترة الثورة المسلحة أو الغوص في الحياة المعيشية الجديدة الّتي تجلّت ملامحها من خلال التغيرات الجديدة الّتي طرأت على الحياة السياسية و الاقتصادية و الثقافية.

[1]- واسيني الأعرج،اتجاهات الرواية العربية في الجزائر،مصدر سابق،ص111.

[2]-ينظر: ادريس بودية،الرؤية و البنية في روايات الطاهر وطار ،قسنطينة ،منشورات جامعة منتوري،2000م،الطبعة الأولى،ص50،51.

إنّ من سمات الرواية الجزائرية في هذه الفترة شجاعة الطرح و المغامرة الفنية، و هذا راجع إلى الحرية الّتي اكتسبها الكاتب بفعل الواقع السياسي الجديد الّذي كان مناقضا للواقع السياسي الاستعماري قبل هذه الفترة، على اعتبار أن الكتابة فن لا يزدهر إلا في ظل الحرية و الانفتاح، فالقمع والاضطهاد قد يدفع الكاتب إلى تبنّي مواقف ما كان ليتبنّاها لو أن الإطار السياسي كان مختلفا. إن الطابع السياسي الّذي انطبعت به النصوص الروائية في هذه الفترة لا يمنع الطرح الجذري الّذي اتسمت به هذه النصوص الروائية و القائم على محاكمة التاريخ، أو الواقع الراهن بلغة فنية جديدة[1].

و لقد جاء هذا الطابع كحتمية لتركيبة ثقافة الرواد الأوائل الّذين كان لهم السبق في تأسيس الرواية الجزائرية الحديثة، و كل هذا يتأتّى لهم من خلال انخراطهم في السلك السياسي و معايشتهم للحدث والمساهمة فيه، فالروائيون الأوائل كانوا من جيل الثورة و الاستقلال، و لذلك فقد تمتعوا بحصانة وتجربة في رصيدهم كما يقول أبو القاسم سعد الله:" رصيد الثورة و نضج سياسي و تجربة نضالية"[2].ما جعلهم يجمعون بين الإبداع و السياسة، فقد كان ابن هدوقة ممثلا لحزب أنصار الديمقراطية و حركة الطلاب الجزائريين بتونس أثناء دراسته،كذلك كان منخرطا في حزب جبهة التحرير، و اشتغل في الإذاعة بعد الاستقلال. و كان الطاهر وطار عضوا في جبهة التحرير إبان تأسيسها،كما أنه اشتغل بالسياسة و الصحافة التونسية، وبعد الاستقلال تفرّغ للعمل السياسي بجبهة التحرير كمراقب للجهاز المركزي للحزب[3].

و قد منح هذا الرصيد من التجربة السياسية هؤلاء الرواد بعدا سياسيا للرواية الّتي نشأت بين أيديهم مثلا ابن هدوقة الّذي أسهم برواياته في إثراء الحركة الروائية من حيث مواجهة الحياة ومشاكلها والتعبير عن قضايا المجتمع و طموحاته، و نشر الوعي السياسي وتدعيم آمال الطبقة الكادحة[4].

---

[1]-ينظر:ادريس بودية ،الرؤية و البنية في روايات الطاهر وطار ،مرجع سابق،ص39،40،41.

[2]-أحمد فريحات،أصوات ثقافية في المغرب العربي،لبنان ، الدار العالمية للطباعة و النشر و التوزيع،1984،الطبعة الأولى،ص87.

[3]-بن جمعة بوشوشة ،الرواية العربية الجزائرية،أسئلة الكتابة و الصيرورة ،دار سحر النشر 1988،الطبعة الأولى ،ص15.

[4]-عمار عموش، دراسات في النقد و الأدب،دار الأمل،1998،الطبعة الأولى،ص47.

إنّ روايات عبد الحميد بن هدوقة و الطاهر و طار تحديدا رسخت للفن الروائي في الحقل الثقافي الجزائري. فكانت فاتحة جيل بأكمله من الروائيين الجزائريين الّذين يكتبون الرواية الّتي تعالج الواقع الاجتماعي والسياسي بلغة حديثة و برؤية عميقة و تمكّن من الفن الروائي، حيث حاول الروائيون الجزائريون أن يوفروا لأعمالهم الروائية قدرا من الفنية يتفاوت بتفاوت زاد كلّ منهم و رصيده من الممارسة الروائية. فقد اجتمع تراكم من النصوص الروائية في هذه الفترة بلغ ستة عشر نصا. و هو النتاج الّذي حدا ببعض الباحثين إلى اعتبار أن السبعينيات عقد الرواية الجزائرية و تبلور اتجاهاتها. [1]

يجدر بنا أن نذكر هنا تلك العوامل "النشطة" الّتي دفعت بالرواية الجزائرية إلى التبلور و النضج الفني، و تحيل هذه العوامل المنشطة إلى الظروف السياسية و الاجتماعية و إلى تلك التحولات العميقة الّتي عرفتها الجزائر المستقلة. فقد كانت فترة السبعينيات هي فترة التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية و الثقافية، و قد كانت استجابة الروائي الجزائري على وجه الخصوص لتلك التحوّلات القاعدية مشروطة بالمثيرات الثورية و الوطنية الّتي روّج لها النظام في تلك الحقبة و قد جعل من الثورية التاريخية مرجعية لمشروعية سلطته[2].

إنّ جل رواياتنا الجزائرية لا تخلو من المواضيع السياسية و الاجتماعية لأنّها كانت بصدد معالجة الصّراع الطبقي فالرواية تعيد صياغة المجتمع بوصفه كيانا موضوعيا يتمّيز بوجوده المستقبل عن الذات[3]. فالنصوص الرّوائية الّتي ظهرت خلال هذه الفترة كانت كلها تسير في فلك الإيديولوجية الاشتراكية المتبنّاة من ظروف الدولة من أجل بناء الدولة الجزائرية الجديدة بعد أن أحرزت الاستقلال ولمّا بدأت مرحلة الدولة الجزائرية الجديدة، ساهمت كلّ المؤسسات في رفع هذا الصرح و ساهمت الرواية كجسر أدبي و مؤسسة اجتماعية في بناء مشروع الدولة.

[1]-حسان راشدي،ظاهرة الرواية الجزائرية الجديدة،الجزائر،جامعة عنابة ،جوان 2006،مجلة التواصل،العدد 19،ص3.

[2]- المرجع نفسه،ص4.

[3]-مخلوف عامر،الرّواية و التّحوّلات في الجزائر ،دمشق،منشورات اتحاد الكتاب العرب،2000،الطبعة الأولى،ص106.

الفصـــــــل الأول

حياة مالك بن نبي

المبحث الأول:نشأته و تعليمه

المبحث الثاني :أعماله و مؤلفاته

المبحث الأول:نشأته و تعليمه.

مولد بن نبي و نشأته:

ولد مالك بن نبي في اليوم الأول من نوفمبر عام 1905م في مدينة قسنطينة بالجزائر،في عائلة جد فقيرة كما كان حال كل العائلات الجزائرية بعد الاحتلال و كان الابن الوحيد لوالدين معسورين، و أخا لثلاث شقيقات[1]و أمام ذلك الواقع الأليم لم تجد عائلته بدا من أن تتحه من قسنطينة إلى تبسة ،فعّم الفقر و الدمار و كانت عائلة بن نبي من ضحايا الاستعمار،فأبوه كان عاطلا عن العمل و جده لأبيه باع كل ما تبقى بحوزته من أملاك[2].أما الطفل مالك فقد عاش منذ سن مبكرة مع عمه الأكبر الّذي تكفل به و كان ميسور الحال نسبيا و كان مقيما بقسنطينة إلاّ أنَّ المنية لم تمهله طويلا فعاد ابن أخيه مالك مع أرملة عمّه إلى والديه بتبسة و هو في حوالي السادسة من عمره،[3]

و عن هذه الفترة العصيبة يقول مالك:«لقد كانت هذه الفترة في حياة عائلتي شديدة العسر».[4]

انضم مالك إلى وسطه الجديد مع أطفال تبسة و هو ينتمي إلى عائلة يقول عنها«مفرطة في الفقر»

فلم تجد الأم بديلا من أن تشمر على ساعديها لتحمي أسرتها من الجوع و توفر لأطفالها ما يسدّون به الرمق،فاشتغلت مهنة الخياطة و العمل الإضافي في أيام الجمع[5].

---

[1]-ابن إبراهيم الطيب،مالك بن نبي و ابن خلدون مواقف و أفكار مشتركة،دار مدني،2002،ص36.

[2]-المرجع نفسه،ص36.

[3]-المرجع نفسه،ص37.

[4]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن القسم الأول الطّفل،دمشق،دار الفكر،1969،الطبعة الأولى،ص18.

[5]-المصدر نفسه،ص19.

تعليم مالك بن نبي:

دخل مالك بن نبي لأول مرة إلى الكتاب ليتعلم القرآن الكريم وكان يدفع مقابل ذلك أجرا شهريا يوفره الأهل بصعوبة ،ويروي أنه في آخر أحد الأشهر لم يحضر المبلغ المطلوب لصاحب الكتّاب لأنَّ تعليمه كان عبئاً إضافيا على نفقة أسرته و لا زال مالك يذكر أنَّ أمّه عجزت عن تسديد أجرة معلمه للقرآن فدفعت له مقابل ذلك سريرها الخاص ،و لقد استغرق تعليم مالك بن نبي بالكتّاب أربع سنوات فقط و هو يذكر عقم الطرق التربوية الّتي كانت سائدة في التدريس مما جعله لم يحفظ من القرآن إلاَّ الجزء اليسير جدا.[1] و كان يقصده قبل الثامنة صباحا موعد دخول المدرسة الفرنسية الّتي كان قد انتسب إليها،وهناك كان حظه مع معلمة أعجب بها و بادلته الشعور ،و رَعَته هي السيدة«بويل» و لم ينقطع عن الثقافة الإسلامية بعد دخول هذه المدرسة الفرنسية ،بل كان يتردّد إلى المسجد لحضور صلاة الجمعة و خاصّة في فصل الصّيف،ترعرع مالك حيث كان جمهور التبسيين ينقسم إلى تيارين:

1-جماعة يمكثون في المسجد بعد صلاة العشاء لسماع دروس الإمام.

2-و آخرون يقصدون المقاهي الأهلية حيث القصَّاصون يقصون بعض حكايات ألف ليلة و ليلة وبني هلال...الخ،كان وعيه يتفتح على الوجود تحت تأثير هذين التيارين،ولكن مع بدء الحرب العالمية الأولى(1914)،سافر إلى قسنطينة حيث أقام عند جدته[2].

دخل إلى المدرسة الابتدائية بتبسة ،ثم التحق بقسنطينة حتى تحصّل على الشهادة الابتدائية ليواصل تعليمه الإعدادي إلى غاية سنة 1918م،حيث أنهى دراسته الإعدادية الّتي تؤهله لدخول المرحلة الثانوية،ولما كان قد نجح بتفوّق فلقد خُصَّ بمنحة لإكمال دراسته في قسنطينة،فعاد إليها و هناك أقام في الفترة الأولى عند بيت عمِّهِ حيث لقي كلّ التكريم ،علّمه عمّه بعض الموسيقى و عرف عن طريقه

[1]- ابن إبراهيم الطيب،مالك بن نبي و ابن خلدون مواقف و أفكار مشتركة،مرجع سابق،ص37،38.

[2]- أسعد السحمراني،مالك بن نبي«مفكرا إصلاحيا»،بيروت،دار النفائس،1404هـ،1984م و1406هـ،1986م،الطبعة الأولى والثانية،ص13،14.

«العيساوية» كإحدى زوايا الطرق الصوفية المنتشرة في المدينة[1]، حيث دراسته في قسنطينة كانت في اتجاهين :عند الأستاذ مارتن في المدرسة الفرنسية ،وعند الشيخ عبد الحميد في الصباح في الجامع الكبير حيث يدرس العربية[2].

واصل مالك بن نبي تعليمه الثانوي و رغم حصوله على درجة جيّدة لم يسمح له بالدخول للمدرسة الثانوية، فاضّطر للدخول إلى التكميلية و ذلك بغرض الإعداد لدخول الثانوية الرسمية ،و قدم للامتحان لدخول المدرسة الثانوية سنة 1920م،وتحقّقت أحلامه بنجاحه،فأصبح لأول مرة يتمتّع بالنظام الداخلي بدل أن كان مقيما في بيت عمّه و كان أوّل سنة دراسية له في الثانوية 1921-1922م وكان دخوله غير سهل بسب تقدمه في السن قياسا مع الصف الذي سيدخله في هذه السنة.

كانت الحلقة الذهبية الثانية في تكوينه،فلقد تعرّف على بعض تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس،فشعر أنّهم و إيّاه ينتمون إلى الخط الفكري عينه،وفي هذه الحقبة الدراسية كان يذهب لقضاء العطلة الصيفية عند والديه في تبسة[3].

التحق بن نبي بمدرسة قسنطينة الثانوية الّتي تحولت فيما بعد إلى ما يسمى بالمدرسة الفرنسية الإسلامية،الّتي أنشئت أصلا لتزويد الإدارة الفرنسية بطبقة من الموظفين -التكنوقراط-و كانت الدراسة فيها باللغتين العربية و الفرنسية، و قد أشار بن نبي في مذكراته إلى انسجامه الكامل مع مسيو مارتن الّذي كان يدّرس الفرنسية و آدابها بطريقة غرست فيه حبّ القراءة و نمّت فيه ذائقته الأدبية و البلاغية[4].

[1]-أسعد السحمراني،مالك بن نبي«مفكّرا إصلاحيا»،مرجع سابق،ص14.

[2]-المرجع نفسه،ص14.

[3]-المرجع نفسه،ص14.

[4]-مالك بن نبي ،مذكرات شاهد القرن القسم الأول الطفل،مصدر سابق،ص71.

و لذلك انكّب بن نبي على الأدب فقرأ روايات "جوليس فيرن"[1]،و"بييرلوتي"[2]و"كلودفارير"[3]

و من الكتب الّتي غذّت اهتماماته الفكرية كتابا كيف تفكرّ "بون ديوي"[4]والتاريخ الاجتماعي للبشرية ل"كورتلمون"[5].

كما انخرط مالك بن نبي في تلك المرحلة في حلقات الشيخ "مولود بن موهوب"الّذي كان يدرّس الفلسفة و العلوم الدينية بالمدرسة الفرنسية الإسلامية قبل توليه الإفتاء وكان يدعو إلى الإصلاح الديني و الاجتماعي،وإلى التقدّم و تحصيل العلوم الحديثة و الأفكار الأوروبية[6].

دأب مالك بن نبي في مطلع شبابه على حضور الحلقات العلمية الّتي كانت تعقد في الجامع الكبير بقسنطينة ، وتلّقى علوم العربية على يد الشيخ "عبد المجيد" الّذي ترك أثرا في نفسه و فكره بما كان يتميّز به من نظرات نقدية للواقع الجزائري،إذ كان ينتقد الطرقيين و يهاجم ممارسات السلطة الاستعمارية في البلاد[7].

و بفضل تلك الدروس أصبح بن نبي قادرا على تذوّق الشعر الجاهلي و الأموي و العباسي و تقديره،وقد قال:«استطعت بفضل الشروح حول النصوص أن أقدِّر و أفهم العبقرية الشعرية الجاهلية و أولئك الشعراء من بني أمية و العباس،وقد استرعى اهتمامي امرؤ القيس و لذّلي سماع

---

[1]-جوليس فيرن(1828-1905)،مؤلف مغامرات منسوجة على منوال الخيال العلمي،وقد كان لها أثر في انتشار بعض الحقائق العلمية في تلك المرحلة.

[2]-بييرلوتي(1850-1923م):روائي فرنسي كتب بعض روائع الأدب الرحلات،كانت معظم رواياته رومانسية تصور مغامرات عاطفية جرت في بيئات شرقية أو استوائية ،ومن أشهرها رواية أزياد الّتي جرّت أحداثها في القسطنطينية عام 1879م،وكان لوتي على علاقة مع السياسي المصري مصطفى كامل الذي شجعه على زيارة الشرق الأوسط و الكتابة عنه.

[3]-كلود فارير:روائي فرنسي عُرف بتميز أسلوبه الأدبي.

[4]:بون ديوي (1859-1952م):فيلسوف اجتماعي و تربوي ،أحد روّاد المدرسة النفعية ،درَّس في عدة جامعات أمريكية ،كان آخرها جامعة كلومبيا الّتي درَّس فيها من عام1904إلى عام1930م حيث تقاعد.

[5]-كورتلمون :ولد الرحالة الفرنسي "كورتلمون" في أفون في15 محرم1280هـ/يوليو1863م الّذي أسلم و سافر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج و كذلك إلى المدينة المنورة وكتب عن رحلة حجه كتابا وسمه "رحلتي إلى مكة المكرمة"عمل ضابطا في جوقة الشرق عاش في الجزائر و انضم إلى أعضاء جمعية كونكورديا في الجزائر التي تضم الأدباء و المثقفين.

[6]-أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية ،القاهرة،المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم،1977م/02،ص165.

[7]-مالك بن نبي،المذكرات الطفل،مصدر سابق،ص110.

الشنفرى،واسترسل لي عنترة في أحلام البطولات،أما الفرزدق و الأخطل و أبو نواس فقد مارس كل منهم إغراءه في نفسي»[1].

و إلى جانب ذلك اتّصل بن نبي بالأدب الحديث،فعرف شعر المهجر و قرأ لجبران و أبي ماضي،كما أعجب بشعر حافظ إبراهيم و الرصافي و بأسلوب المنفلوطي و خاصّة في كتابيه النظرات و العبرات[2].

بعد انقضاء أربع سنوات من الدراسة بالثانوية تخرج مالك بن نبي سنة 1925م و يظهر أنه كان يشعر بنوع من التقدّم في السن عن بقيّة زملائه و هذا يعدّ طبيعيا بالنسبة لظروفه الخاصة و العامة ، وخاصة أنه من بين الجزائريين القلائل الّذين فرضوا أنفسهم و شقّوا طريقهم بالتّأهل مع أبناء الفرنسيين رغم المضايقات و رغم تعدّد أنواع الإقصاء و التميز و إبعاد السلطة على أبناء الجزائريين[3].

الجزائريين[3].

البحث عن العمل:

لمّا كان بن نبي ينحدر من أسرة فقيرة،أصبح هاجسه هو المستقبل و حصوله على عمل يشدّ به أزره و يساعد به أسرته بدأ بالتنقل و البحث عن أي عمل يقوم به أو أيّ نشاط يمارسه ،وبعد جهود مضنية لم يفلح في مسعاه،فقرّر بصحبة صديق له اسمه قاواو الاتجاه إلى فرنسا و بعد جولة زار خلالها عدّة مدن فرنسية منها:باريس ليون،مرسيليا لم يوفّقا في الحصول على أيّ عمل فعادا إلى الجزائر[4].

بعد عودته من فرنسا استقرّ بمدينة تبسة واشتغل عونا بمحكمتها سنة1927م ثم عُيّن في السنة نفسها كاتبا في محكمة آفلو بعد ذلك انتقل إلى محكمة شلغوم العيد ليعمل بها.

[1]-مالك بن نبي، المذكرات الطفل ،مصدر سابق،ص68.

[2]-المصدر نفسه،ص68.

[3]-ابن إبراهيم الطيب ،مالك بن نبي و ابن خلدون مواقف و أفكار مشتركة،مرجع سابق،ص38.

[4]-المرجع نفسه ،ص 39.

كانت سياسة الاستعمار الفرنسي تعرقل كلّ نشاط و تكبح كلّ حركة يحاول من خلالها الجزائريون التّحرّر من قيود الاستعمار الفرنسي و أمام هذه المضايقات،استقال بن نبي من وظيفته ،واشتغل في التجارة مع صهره و شريك ثالث ،وأقاموا طاحونة ليعملوا بها،إلا أنّهم فشلوا في تحقيق أيّ نجاح و صادفتهم الأزمة الاقتصادية العالمية سنة 1929 فلجأوا لبيع المطحنة و التَّخلّي عن المشروع[1].

عاد بن نبي لقسنطينة و تعرّف لأوّل مرّة على" الشيخ عبد الحميد بن باديس"رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر،وبدأت معالم الحركة الإصلاحية ترتسم أكثر أمام ناظريه إلاّ أنَّ الأزمة الاقتصادية و ما نجم عنها جعل الوضع الاجتماعي يسير من سيّئ لأسوء ،وأصبحت حاجته للعمل ماسّة أكثر،وأمام إلحاح والديه عليه بالسفر لفرنسا مرّة أخرى أسوة ببعض الجزائريين و البحث عن أيّ عمل ،و إكمال دراسته أمام كلٌ ذلك لم يجد خيار آخر،فعزم على الرحيل و شدّ حقائبه و كان ذلك سنة 1930م[2].

بعد وصوله قام بتسجيل اسمه لامتحانات القبول بمعهد الدراسات الشرقية ليتأهلّ بعد ذلك لدخول كلّية الحقوق،لكن المقياس السياسي الّذي يُقاس به الطلبة الجدد أسقطه في الامتحان ،والذي كان من وراء سقوطه كما يقول هم مدبّروا الصراع الفكري و في مقدمتهم بعض المستشرقين الحانقين على الإسلام[3].

تحطمت آمال مالك بن نبي في الحصول على وظيفة المحاماة الّتي حلم بها بعد تخرجه من معهد الحقوق و أخيرا قرّر مالك الالتحاق بمدرسة اللاسلكي لدراسة هندسة الكهرباء،وكان تأثير هذه المدرسة عليه يشكل منعطفا جديدا في حياته:«بل غيرت جذريا اتجاهي الفكري،إذ أنّها أسكنت في نفسي شيطان العلوم»[4].

---

[1]-أسعد السحمراني،مالك بن نبي«مفكّرا إصلاحيّاً»،مرجع سابق،ص15.

[2]-ابن إبراهيم الطيب،مالك بن نبي و ابن خلدون مواقف و أفكار مشتركة،مرجع سابق،ص40.

[3]-عبد اللطيف عبادة،صفحات مشرقة من فكر مالك ،باتنة،دار الشهاب،1984،الطبعة الأولى،ص35.

[4]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن القسم الثاني"الطالب"،دمشق،دار الفكر،1970،الطبعة الأولى،ص219.

و من ذلك تغيّرت حياته، ونظرته للحياة فأصبح همّه الوحيد هو طلب العلم، و أصبح يشعر كأنّه حصّل جميع آثار مجتمع يبحث عن الخلاص من بؤسه. [1]

و في باريس تعرّف على الوحدة المسيحية للشباب البارسيين الّتي تُدار و تنظم شؤونها طبقا لضرورات شباب يدرس أو يعمل بعيدا عن أهله،وهكذا أصبح مالك عضوا مسلما في هذه الوحدة و هو حدث غير عادي ،ويقول مالك أنّ تكوينه الروحي قد تكامل في هذه الوحدة الّتي كان يديرها السيد:"هنري نازيل"و زوجته روحيا و مادّيا.

بدأت شخصية مالك تتكون بعقد الصلة بين القيم الاجتماعية و التّقنية الّتي يراها و يعيش في أجوائها في الحي اللاتيني حيث يسكن الألوف من العرب و المغاربة الّذين كانوا يدعون الإصلاح، و "الوهابية"و"الوحدة المغاربية"و لكلّ شعار عربي و إسلامي.

في عام 1931م هداه الله إلى زوجته الفرنسية وهداها هي إلى نور الإسلام فتزوجها و أسلمت،وصار اسمها خديجة،وبذلك بدأت حياة بلون جديد بالنسبة له،حيث كانت خديجة توفّر له كلّ الراحة و الرعاية البيتية ،وهناك بدأت لقاءاته مع كثير من زملاء الدراسة و العمل للإصلاح فكان أبرزهم"حمودة بن الساعي"[2].

في باريس تعرّف على المستشرق "ماسينيون"،وساءت العلاقة بينهما بسبب عدم الدراية من بن نبي كما يعترف في مذكراته ،و المعرفة في التعامل مع رجال الاستعمار ،وتيسّر له أن يقابل "المهاتما غاندي"الّذي زار باريس عام 1932م،وألقى فيها محاضرة حضرها الجمعية الّتي كان مالك عضوا فيها و تعرف كذلك على"فريد زين الدّين"الّذي أصبح نائب وزير الخارجية للجمهورية العربية المتحدة زمن الوحدة بين مصر و سوريا،ومن خلاله تعرف على أفكار "شكيب أرسلان"الإصلاحية،والذي كان يومها لاجئا في جنيف.

---

[1]–*مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن، مصدر* سابق، ص 219 .

[2]–أسعد السحمراني،مالك بن نبي«مفكّرا إصلاحياً»،مرجع سابق،ص16،15.

فشلت محاولاته العديدة للسفر إلى جدة و مصر و أفغانستان و إيطاليا،ولم تفلح واحدة منها،وفي سنة1936م تعرّف على بعثات أزهرية في فرنسا بينها "الشيخ محمد عبد الله الدّراز"،وقابل في العام نفسه مع بعض زملائه الوفد الجزائري الّذي أتى باريس يطالب السلطات الفرنسية بالمشاركة البرلمانية وكان في الوفد الشيخ"عبد الحميد بن باديس"،والشيخ"البشير الإبراهيمي"،وغيرهما[1].

لقد عمل مالك من أجل الإصلاح في وسط الجزائريين و العرب المسلمين عموما دون الخوف من النتائج لذلك حاربه الاستعمار ،يقول:«إنّني قدّمت بعد نهاية دراستي سنة1936،طلبا إلى الوزير المسؤول بباريس من أجل تأسيس معهد بقسنطينة لتحضير الطلبة الّذين يرغبون بالدخول إلى كليّات الهندسة...فلم يأتني رد،وفي سنة1939/1938أسّست بمدينة مرسيليا مدرسة للأميّين في سن متقدّم من بين إخواننا العمال المشتغلين بفرنسا،فدعتني الإدارة المختصّة و منعتني من أن أواصل التّدريس في هذا المعهد البسيط بدعوى أنه ليس لديَّ مؤهلات »[2].

بعد هذه التجربة قصد بن نبي تبسة ،ولكن ما لبث أن بدأت الحرب العالمية الثانية،وضاقت سبل العيش،فعاد إلى فرنسا مع زوجته في 22سبتمبر1939[3].

قد اضطر بن نبي —بعد أن سُجن في فرنسا لأسباب لم ترد تفاصيلها-إلى طلب اللجوء السياسي إلى مصر الّتي سافر إليها بمفرده،حيث لم تستطع خديجة أن تصحبه،نظرا لإصابتها برومانيزم الأطراف،فبقيت بفرنسا وهو وضع لم يكن سارّاً لكليهما[4]،وقد حافظ على علاقته معها فكان يراسلها باستمرار و يرسل إليها بالمال بعد أن حصل على اللجوء السياسي و استقر بمصر و حصل على وظيفة[5].

---

[1]-أسعد السحمراني،مالك بن نبي«مفكّرا إصلاحيّاً»،مرجع سابق،ص16،17.

[2]-مالك بن نبي،في مهب المعركة،دمشق،دار الفكر،سنة1981م،الطبعة الثالثة،ص119.

[3]-أسعد السحمراني،ماك بن نبي«مفكّرا إصلاحيّاً»،مرجع سابق،ص17.

[4]-عبد الصبور شاهين،مقابلة شخصية معه بالليتوبز بأمريكا،6 -1978/09/7م،عن فوزية بريون،مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة،دمشق،دار الفكر،1431هـ/2010م،الطبعة الأولى،ص116.

[5]-عبد الصبور شاهين،مقابلة شخصية معه بالليتوبز بأمريكا،6-1978/09/7م، عن مرجع سابق،ص116.

مصر:الهجرة و النشاط:

بعد عامين من اندلاع الثورة الجزائرية نجح بن نبي في الهجرة إلى مصر الّتي لم يذكر سبب اختياره لها،ولابدّ أن ذلك الاختيار قد استند إلى كون مصر مركز الثراء الفكري و الاجتماعي و الحضاري في الوطن العربي،وهي أول بلد عربي شجب الاستعمار الفرنسي للجزائر قبل ثورتها،و وقف مع تحرّرها منذ مراحله الأولى ،ولذلك كانت مصر ملجأ الكثير من الوطنيين الجزائريين ،ومقرّا للحكومة الجزائرية المؤقتة الّتي شكلها في المنفى قادة جبهة التحرير الجزائرية،وقد أشار بن نبي في رسالته المعنونة(إلى قادة الثورة)إلا أنه قد حضر إلى مصر ليكون قريبا بقدر الإمكان من وطنه[1]،مقدّما لهم مقترحات عملية ظنّ أنها تمكّنه من خدمة الثورة،مثل أن يعمل «ممرّضا عسكريّاً في جبهة الحرب ليكتب تاريخ الثورة من الدّاخل»و ليكتب من هناك إلى رئيس الوزراء الفرنسي شارحا له«الأسباب التي تصنع كاتبا جزائريا في المعركة»[2]،ولكن بن نبي لم يتلق أي رد ،ربما لأنه كان-على مستوى الممارسة السياسية- معارضا لإنشاء أحزاب سياسية في الجزائر،منتقدا لنشاطاتها في كلّ مرة تحدث أو كتب فيها عن الموضوع،بل انه كان يرى أن تلك الأحزاب«كانت مسؤولة عن تأخر الثورة إلى ما بعد الحرب العالمية»[3]،ولعل ذلك أحدث توجّسا و سوء فهم بينه و بين قادة الثورة الّذين ربما راودهم الشك في طلب بن نبي نظرة سلبية إلى بعض قادة الثورة ، إذ كان يرى في فرحات عباس إنسانا خائنا[4].

و لا غرابة في أنه في الوقت الّذي كان بن نبي يصف فيه قادة الثورة بأنهم خونة و جواسيس ،ولذلك لم يردّوا على رسالته مما زاد في درجة تشكّكه فيهم،فكتب رسالة صغيرة بالفرنسية بعنوان النجدة للجزائر،محاولاً أن يلفت الانتباه فيها إلى ما اعتبره عيوب الثورة الجزائرية ،وهو ما يبين مدى الإحباط الّذي كان بن نبي يعانيه آنذاك،ولكن ذلك الإحباط سرعان ما تلاشى عندما حصل على حق اللجوء السياسي في مصر،ولمس تقدير المسؤولين المصريين له على إنتاجه الفكري فعيّن مستشارا في

[1]-مالك بن نبي،في مهب المعركة،القاهرة،مكتبة المتنبي،1972،ص80،81.

[2]-المصدر نفسه،ص80،81.

[3]-بن نبي،المذكرات طفل،مصدر سابق،ص86.

[4]-عبد الصبور شاهين،المقابلة ،عن فوزية بريون،مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة،مرجع سابق،ص127.

المؤتمر الإسلامي الّذي سمي فيما بعد مجمع البحوث الإسلامية الّذي شغل أنور السادات منصب أمينه العام ،ونشرت وزارة الإعلام المصرية ،فكرة الإفريقية و الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ في أصله الفرنسي عام1956م،ثم صدور الترجمة العربية بتقديم أنور السادات[1]،وقد قدم هذا الكتاب بن نبي بوصفه مفكّرا و صاحب رؤية فريدة النخبة المصرية و للقراء العرب بعد ذلك وقد ترجمه عبد الصبور شاهين-الّذي ترجم فيما بعد كتبا أخرى-معتبرا أفكار بن نبي تعويضا عن الفكر الإسلامي،الّذي حدّ منه نظام عبد الناصر بعد صدامه مع الإخوان المسلمين,ومنع كتبهم و منشوراتهم.

ومن خلال ترجمة شروط النهضة و الظاهرة القرآنية و وجهة العالم الإسلامي أسهم شاهين في نشر أفكار بن نبي الإسلامية في جوهرها،والجديدة في نمطها،مستغلا كون المترجَم عنه تحت حماية النظام[2].

في القاهرة و بينما كانت الترجمة العربية لكتاب شروط النهضة تحت الطبع،صدر كتاب بعنوان العروة الوثقى يجمع مقالات جمال الدين الأفغاني و محمد عبده[3]،وقد أشار الناشر في مقدمته إلى كتاب آخر بعنوان مستقبل الإسلام[4]،وذكر أنه "لكاتب فرنسي عاش في شمال إفريقيا،حيث اختلط و أحب و اعتنق الإسلام،وكان في سبيل الدفاع عنه".[5]

و ليست هذه الإشارة سوى معلومات خاطئة عن بن نبي نفسه،إذ كان ذلك الكتاب ترجمة لوجهة العالم الإسلامي،نُشر دون إذن المؤلّف و أسقط المترجِم تعريفا بالكاتب كان مدرجا في الأصل الفرنسي،وقد اعتبر بن نبي تلك الإشارة خطأً مقصوداً استهدف تشويه صورته داخل مصر

و خارجها.وكعادته اعتقد بأن (الاستعمار)كان وراء ذلك،وهو ما جعله يرى أن«الأفكار الّتي جاءت إلى الشرق من أجل نشرها قد وقعت في شبكة الرقابة الاستعمارية و أن حركة هذه الأفكار قد

[1]-نُشر الكتاب في سلسلة اخترنا لك كما ذكر د.شاهين ،عن فوزية بريون،مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة،مرجع سابق،ص128.

[2]-د.شاهين،المقابلة، عن فوزية بريون،مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة ،مرجع سابق،ص128.

[3]-جمال الدين الأفغاني و محمد عبده العروة الوثقى و الثورة التحريرية الكبرى،القاهرة،منشورات دار العرب،1958م،ص51.

[4]-هذه أول ترجمة عربية لكتاب بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ،ترجمة شعبان بركات،ص51.

[5]-بن نبي،الصراع الفكري في البلاد المستعمر،دمشق،دار الفكر،1399ه/1979م،ص52.

أصبحت موضوعا للمراقبة»[1] ،و بالرغم من ذلك الشعور فإن بن نبي لم يتوقف عن نشاطاته و طرح رؤاه الاجتماعية و الفلسفية الّتي سببت في بعض الأحيان شيئا من الاختلاف و الخلاف بينه و بين غيره من الكتّاب،ولعل أشهر هذه الخلافات تلك الّتي حدثت بينه و بين سيدّ قطب[2] الّذي أعلن عن قرب صدور كتاب له بعنوان نحو مجتمع إسلامي متحضر،وقد أعجب بن نبي بالعنوان الّذي جعله يتطلع إلى أن تتلاقى أفكار الكتاب مع أفكاره التي ينادي بها و يؤسس لمنهجيتها،ولكن سيدّ قطب قرّر لاحقا حذف صفة (متحضر)،وأصدر الكتاب بعنوان نحو مجتمع إسلامي،وهو ما لم يرق لبن نبي الذي لم يرحب بذلك الحذف بل رآه «تشويها للقضية الحقيقية»[3]،معتبرا أن العنوان الجديد يحمل إدّعاءا بأنَّ المسلمين متحضّرون،وهو« مديح لا فائدة منه نتج عنه وضع من الولاء الأعمى»[4]،كما انتقد على –المستوى الفكري و النفسي–الاعتقاد بوجود تناقض بين أن يكون الإنسان مؤمنا حقيقيا،وأن ينتقد وضع المسمين الراهن[5].

و قد ردّ سيد قطب في كتابه معالم في الطريق على آراء مالك بن نبي تلك،مشيرا إليه بوصفه (كاتبا بالفرنسية) مدافعا عن قراره حذف كلمة(متحضر)من عنوان كتابه مسوّغا ذلك بأنه إنما كان يهدف إلى تجنب التكرار ،مشيرا إلى أن إدخال كلمة(متحضر)في عنوان الكتاب في البداية ,كانت نتيجة لوجود مقاييس غربية للحضارة شوّشت تفكيره و أثّرت بطريقة غريبة في الضمير الإسلامي،وقد خلص إلى أن صفة (الإسلامي)المنسوبة إلى المجتمع هي في الحقيقة متضمنة الصفة الأخرى المحذوفة مؤكدا أن« المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر الوحيد».[6]

---

[1]–ابن نبي،الصراع الفكري في البلاد المستعمرة،مصدر سابق،ص47.

[2]–سيد قطب(1906–1966):مفكر إسلامي من جماعة الإخوان المسلمين مارس الكتابة و النقد الأدبي و الشعر سُجن في محنة الإخوان الأولى 1954 لمدّة عشر سنوات،وفي السجن كتب عددا من مؤلفاته التي كانت تنشر خارج مصر و بالتحديد في بيروت،لعلّ أشهر تلك المؤلفات "في ظلال القرآن"،أطلق سراحه عام 1964م بعد أن توسط الرئيس العراقي "عبد السلام عارف"لدى عبد الناصر،نشر قطب كتابه"معالم في الطريق" عام 1965م وبعدها قُبض عليه و حوكم على أفكاره المدرجة في الكتاب فحكم عليه بالإعدام و نفذ في 29.

[3]–بن نبي،فكرة الإفريقية الآسيوية،دمشق،دار الفكر،1422هـ–2001م،الطبعة الثالثة،ص 246.

[4]–المصدر نفسه،ص246.

[5]–فوزية بريون،مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة، مرجع سابق،ص130.

[6]–سيد قطب،معالم في الطريق،الكويت،الإتحاد الإسلامي،1979م،ص106.

و في إحدى الندوات العامة حدث نقاش حي آخر بين قطب و بن نبي عبّر فيه الأول عن اختلافه مع النتيجة التي وصل إليها بن نبي في نظريته عن الحضارة ،الّتي أكدّت على أن الدين-أيّ دين-هو المحرّك الفعّال للحضارة،وقد أصرّ قطب على أن الإسلام وحده هو القادر على إنتاج الحضارة[1].

أقام بن نبي في مصر ليمارس نشاطه الفكري و يتواصل مع نخبة من الدارسين في الجامعات المصرية خلال الستينيات ،حيث كان يعقد ندوة أسبوعية في منزله يرتادها أولئك الطلاب و غيرهم من المثقفين،وقد استفاد منها عدد من أبناء ذلك الجيل الّذين اتصلوا ببن نبي و اطلعوا على أفكاره و كوّنوا رؤاهم في حلقته الثقافية الّتي كانت تضع كلّ القضايا المطروحة في إطار مشكلات الحضارة الّتي نذر بن نبي تأملاته الفكرية و الفلسفية لتشخيصها و تتبع جذورها و ربما بسبب ذلك الإقبال كانت تلك اللقاءات تحت الرقابة الرسمية[2] .

العودة إلى الجزائر:

عندما انتصرت الثورة الجزائرية وتحقق حلم بن نبي في استقلال بلده لم يتحمس للعودة بل بقي في القاهرة و تزوج في العام نفسه 1962م من سيدة جزائرية انتقلت إليه من تونس و عاشا معا في القاهرة لأكثر من عام[3].و عندما عاد إلى الجزائر عام 1963م استأنف الكتابة و إلقاء المحاضرات بالفرنسية غالبا،فنشر مقالات عديدة في الصحف مثل الثورة الإفريقية و المجاهد و غيرهما،و قام بعد ذلك بترجمتها إلى العربية بنفسه ونشرها بعد وفاته عمر مسقاوي تحت عنوان ،بين الرشاد و التيه،وفي هذه المرحلة اهتم بن نبي بمناقشة مختلف القضايا الّتي تتعلق بما أسماه الفراغ الإيديولوجي أو المفاهيمي –كما يحلو له أن يسميه-الّذي وجدت الجزائر فيه نفسها و هي تواجه ذاتها و تراثها و مستقبلها بعد الاستقلال ،وفي هذا الإطار ألقى بن نبي ثلاث محاضرات قيّمة حول الثقافة و الإيديولوجية

[1]-ينظر:المهدي فضل الله،سيد قطب في فكره السياسي،بيروت،مؤسسة الرسالة،1979م،هامش2ص104.

[2]-د.شاهين،المقابلة ،عن فوزية بريون،بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة ،مرجع سابق،ص135.

[3]-لقد بقي سبب عدم عودة بن نبي إلى الجزائر بعد استقلالها غير معروف،ذكر البعثي أن بن نبي كان على خلاف مع أحمد بن بلة و لذلك لم يعد إلى الجزائر في عهده،البعثي،ص191، عن فوزية بريون،مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة،مرجع سابق،ص135.

و الحضارة جمعها في كتاب بعنوان discours sur la culture,l'ideology et la civilisation ترجم إلى العربية بعنوان"آفاق جزائرية".[1]

و في عام1965م عُيّن بن نبي مديرا للتعليم العالي التابع لوزارة التعليم القومي،وقد جعله هذا المنصب محط اتصال كبار المسؤولين لاستشارته في قضايا التعليم الجامعي[2]،ولكن لم تمض سنتان حتى استقال من منصبه لأسباب غير معروفة،ولم يحل ذلك دون استمراره في الكتابة و النشر بل إنه قد فتح منزله مرة أخرى لعقد لقاءات فكرية تناقش فيها القضايا الكبرى المتعلّقة بالجزائر و بالعرب و المسلمين وبالحضارة الإنسانية إجمالا[3]وكانت هذه الندوة الأسبوعية قبلة يرتادها طلاب الجامعات والشباب المتطلّع إلى لون جديد من المنهجية و التحليل الهادف إلى محو(القابلية للاستعمار) و زرع (الفعالية) لمواجهة المشكلات الفردية و الجماعية.ولذلك لم يكن غريبا أن تخضع هذه اللقاءات للمراقبة ممّا أدّى إلى منع مالك بن نبي من السفر،حتّى اضطر أن يكتب عام1971م طلبا للسلطات للسماح له و لزوجته و بناته الثلاث بالسفر لأداء فريضة الحج.[4]

و قد أمضى بن نبي و أسرته في تلك الرحلة نحو سبعة شهور تنقل خلالها بين مصر و سورية و لبنان و ليبيا و تونس،يعقد الاتصالات بأصدقائه و تلاميذه ،ويرتب حقوق طبع مؤلفاته وكأنّه شعر بأن تلك هي رحلته الأخيرة،وأنّ هذه اللقاءات هي الفرصة الوحيدة الباقية ليلقي ببذور أفكاره فيمن يجد من عقول واعية،وقد كانت رحلته إلى دمشق مثمرة شخصيا و ثقافيا،كما سجّل في –أثناء وجوده في لبنان وصية رسمية في محكمة طرابلس (تحت رقم 275/76 بتاريخ 1391/4/16م الموافق1971/7/10م منح فيها المحامي عمر مسقاوي حق الإشراف على طبع مؤلفاته و الحفاظ على حقوقه الفكرية بعد وفاته.

[1]–فوزية بريون،مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة،مرجع سابق،ص136.

[2]–محادثة هاتفية مع زوجته في أثناء زيارتها لابنتها رحمة بكليفورنيا في آب أغسطس1958م، عن مرجع نفسه،ص136.

[3]–رشيد بن عيسى،المقابلة، وعنوان المنزل الّذي كانت تعقد فيه الندوة هو 5 شارع فرنكلين روزفلت،البعثي،ص227، عن مرجع نفسه،ص136.

[4]–زوجة بن نبي،محادثة هاتفية،عن مرجع نفسه،ص136.

و بعد عودته من هذه الرحلة،وفي أثناء الشهور الأخيرة من عصره-على الخصوص-شعر بن نبي بالغبن و الجحود و الإحباط إذ عملت السلطة الجزائرية على عزله و تجاهله و مضايقته،وهناك من يرجع سبب ذلك إلى حديث مالك بن نبي بين يدي الملك فيصل في أثناء استقباله لممثلين عن الحجاج عام(1391هـ-1971م)،والّذي أشار فيه إلى غياب الحريات في بلده الجزائر[1].

و لقد بلغت تلك المضايقات درجة وصفها أحد تلاميذه بقوله:«و لعلّ الشهور الأخيرة الّتي عشناها معه هي أخصب فترة لنا ،حيث عشنا معه بعض الليالي لحمايته،لأن أعداء الإسلام في البلاد هدّدوه و حاصروه و ضغطوا عليه،بل و وصلوا إلى أن بعثوا له اثنين أو ثلاثة فضربوه قرب منزله،وتركوه مرميّا في الطريق،دامي الوجه مصروعا و لولا رحمة الله به أن جاء بعض الناس و ذهبوا به إلى المستشفى،وبعد هذا الاعتداء نظّمت مداومة في بيته من أجل حمايته،فكان الطلبة يتناوبون في بيته كل ليلة يحرسونه..»[2].

و خلال تلك الأيّام سُلّطت عليه جارة سليطة اللسان دخلت معه في مشادّات و ضربته على وجهه فكسرت بعض أسنانه ،وقد طلب من زوجته أن تحتفظ بتلك الأسنان في قطعة قطن لبناته،ذكرى للمعاملة المهينة الّتي ابتلي بها في آخر عمره[3] .

و قد أصيب بن نبي بسرطان المخ و أجريت له عملية بفرنسا و عندما عاد إلى بلاده ما لبث المرض أن عاوده فتوفي في منزله في اليوم الأخير من شهر تشرين الأول/أكتوبر عام1973م و دفنه تلاميذه و أصدقاؤه ،ورثاه كثيرون في دمشق و لبنان و مصر و بلدان المغرب العربي و فرنسا و في غيرها من البلاد الإسلامية كما أُبِّن رسميا و شعبيا في الجزائر و ليبيا[4].

---

[1]-فوزية بريون،مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة،مرجع سابق،ص137.

[2]-محمد مصطفى،«رجوع التذكير أو تاريخ مرحلة دعوية حاسمة»،مجلة التذكير ،جامعة الجزائر،العدد6،رجب1410هـ،شباط/فبراير1990م،ص40.

[3]-حديث شخصي مع زوجته،تبسة،ملتقى الفكر الإسلامي،أغسطس/سبتمبر1989م،وقد علم بهذه الحادثة صديقه علي أوحيت في قلب الصحراء فذكرها في المقابلة الّتي أجريت معه،عن فوزية بريون،مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة،مرجع سابق،ص138.

[4]-فوزية بريون،مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة،مرجع سابق،ص138.

المبحث الثاني:أعماله و مؤلفاته:

ألف مالك بن نبي ما يزيد عن العشرين كتابا ما بين سنتي1946 و 1973 و هي سنة وفاته و تنوعت عناوين كتبه و اختلفت مواضيعها و توحدّت غايتها.

كانت عناوين كتب مالك بن نبي عبارة عن مواضيع شديدة الصلة بالحضارة،إن لم نقل هي الحضارة،حاول من خالها طرح الإشكالية الحضارية،فتساءل عن شروط النهضة وعن المشاكل الاقتصادية و الفكرية و الثقافية و الاجتماعية و الّتي تكوّن مجتمعه فيما يسمى بالتخلف الحضاري،فكانت عناوين كتبه محاولات للإجابة عن تساؤلاته،لكن لكلّ تساؤل كتابه.

1-الظاهرة القرآنية:هو أوّل مؤلفات مالك بن نبي أثناء إقامته بفرنسا سنة 1946م مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية و الكتاب عبارة عن نظرية و منهجية جديدة عن كيفية قراءة و فهم القرآن.

2-لبيك:صدر سنة 1947 و هو عبارة عن قصة شاعرية.

3-شروط النهضة:صدر سنة 1948 و يعدّ من أهم مؤلفاته، تناول فيه التاريخ و الحضارة وحركتهما، وما يتصل بهما من مركبات كالدّين و الأخلاق و الثقافة.

4-وجهة العالم الإسلامي:و هو أحد أهمّ كتبه صدر سنة 1945م سنة قيام الثورة الجزائرية،تناول فيه فوضى العالم الإسلامي وأزماته و محاولات نهضته،وبعد هذا الكتاب آخر كتبه بفرنسا قبل أن ينتقل إلى مصر للإقامة بها.

أهم كتب مالك الّتي أصدرها و هو مقيم بمصر هي:

1-الفكرة الإفريقية الآسيوية صدر سنة1956م.

2-مشكلة الثقافة صدر سنة 1957.

3-أنقذوا الجزائر صدر سنة 1957.

4-الصراع الفكري في البلاد المستعمرة صدر سنة 1957.

5-البناء الاجتماعي الجديد نشرت في بيروت سنة 1958.

6-فكرة كومنولث إسلامي صدر سنة 1958.

7-تأملات في البناء الجديد صدر سنة 1960.

8-مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي صدر سنة 1960.

9-ميلاد مجتمع صدر سنة 1960.

10-في مهب المعركة صدر سنة 1961.

لقد أصدر بن نبي عشرة كتب في مدة خمس سنوات و بمعدّل كتابين في كل سنة،و في مواضيع تتطلب البحث الجاد و النظر الدقيق و الفكر العميق،وتعتبر هذه المواضيع بمثابة عصب البناء الحضاري،في هذه الأجواء الحافلة بالعمل الدّؤوب و البحث و التأليف،نالت الجزائر استقلالها و أفتكّت حريتها بعد كفاح طويل و تضحيات جسام،كان ذلك سنة 1962 بعد هذا الحدث التاريخي قرّر بن نبي العودة إلى أرض الوطن الّتي طالما حلم بها،وهناك عُيِّن مديرا عامّا للتعليم العالي،ولم يطل مقامه بهذا المنصب فقدّم استقالته منه سنة 1967،ليتفرّغ و يواصل مسيرته الفكرية،وفي هذه الفترة الّتي قضاها في الجزائر ألّف الكتب التالية:

1-آفاق جزائرية صدر سنة1964.

2-مذكرات شاهد القرن الجزء الأول-الطفل-و هو سيرة ذاتية صدر سنة 1965.

3-أعمال المستشرقين صدر سنة 1967.

4-الإسلام و الديمقراطية صدر سنة 1968.

5-مذكرات شاهد القرن الجزء الثاني-الطالب-صدر ببيروت سنة 1970.

6-المسلم في عالم الاقتصاد صدر ببيروت سنة 1972.

7-دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين صدر ببيروت 1973[1].

8-بين الرشاد و التيه و هو عبارة عن مجموعة من المقالات جمعت و طبعت بعد وفاته سنة 1978.[2]

مؤلفات أخرى لمالك بن نبي:

1-النجدة الشعب الجزائري بيان ظهر سنة 1376هـ-1957م في القاهرة.

2-حديث في البناء الجديد ظهر في 1378هـ-1960م في بيروت.

3-الصعوبات علامة النمو في المجتمع العربي،ظهر في سنة 1379هـ-1960م في القاهرة.

4-الاستعمار يلجأ إلى الاغتيال برسائل العلم ظهر في سنة 1379هـ-1960م في القاهرة .

5-تأملات في المجتمع العربي ظهر في سنة 1380هـ-1961م في القاهرة.

6-خطاب مفتوح لخروشوف و إيزنهاور.

7-مجالس دمشق«مخطوط».

8-مولد مجتمع إسلامي(مخطوط).

9-مجالس تفكير يسجل بعضها في أثناء مجالسه أو ندواته.

---

[1]-ابن إبراهيم الطيب،مالك بن نبي و ابن خلدون مواقف و أفكار مشتركة، مرجع سابق،ص46، 47، 48.

[2]-عبد اللطيف عبادة،صفحات مشرقة من فكر مالك ،مرجع سابق،ص38،37، 39.

10-مذكرات شاهد القرن(القسم الثالث)مخطوط.

11-العلاقات الاجتماعية و أثر الدين فيها.

12-نموذج لمنهج باللغة الفرنسية.

13-كتاب حو مشكلة اليهود.

14-العفن وقد كتبه أواخر حياته بالفرنسية.

15-اليهودية أم النصرانية.

16-دراسة حول النصرانية.

17-من أجل التغيير.

18-القضايا الكبرى.

19-معنى المرحلة(1970).[1]

[1]-موقع الانترنت،مالك بن نبي،الموقع الرسمي المكتبة الشاملة،2011،2005،اسم المصنف مالك بن نبي،تاريخ الوفاة 1393 ،ترجمة المصنف مالك بن نبي.

الفصـــــــل الثاني

الملامح الأدبية في إنتاج مالك بن نبي: نماذج من مؤلفاته

المبحث الأول :رواية لبّيك

المبحث الثاني:مذكرات شاهد القرن

المبحث الأول:رواية لبّيك:

يعد مالك بن نبي من أبرز المفكرين و الفلاسفة في العالم العربي و الإسلامي ،فأبحاثه و آراؤه ما زالت تشغل الناس من حيث قيمتها الفكرية و أبعادها الإنسانية،ولكن ما يشد انتباهنا و جعلنا نقف عند أدبية مالك بن نبي هو الكتابة بروح كاتب و ليس بروح فيلسوف فبالرغم من أن معظم رواياته كانت بأسلوب فلسفي كما هو معروف عنه إلاّ أنّه استطاع أن يجمع بين الفلسفة و الأسلوب الأدبي بتقنياته الجماليّة.

إلا أنّ كثيرا من الباحثين لا يعرف أن مالك بن نبي أديب فذ، ولم تذكر الأبحاث و الدراسات الأدبية الّتي أنجزت منذ الاستقلال أن مالكا اهتم بالأدب ،و بالمقابل نجد عند التأريخ للأدب الجزائري أسماء ربما كتبت قصيدة صغيرة أو قصة واحدة مكنتها من الدخول إلى تاريخ الأدب الجزائري، فضلا أن بعضها لا يرقى إلى مستوى الفكر.

لكن الّذي لم تذكره كل تلك الدراسات الأدبية عن قصد أو عن غير قصد ،أن مالك بن نبي هو أول أديب جزائري يكتب رواية فنية باللغة الفرنسية و عنوانها(لبّيك حج الفقراء)،وقد نشرها سنة 1947 عن دار النهضة في الجزائر و الفضل في ظهور هذه الرواية للباحث الجزائري الدكتور زيدان خوليف الّذي ترجمها إلى العربية و نشرت لأول مرة سنة 2009 عن دار الفكر بدمشق و تقع في 156 صفحة و هي رواية قصيرة في حجمها بسيطة في نظمها.

تعدّ هذه الرواية أولى الأعمال الأدبية في النثر الجزائري الّتي تحمل وعيا و نضجا فكريا و سياسيا و فلسفيا و إبداعا فنيا،وقد جاءت الرواية مباشرة بعدما أصدر مالك بن نبي كتابه(الظاهرة القرآنية)سنة 1946،ومعلوم أن (الظاهرة القرآنية) يعد من أقوى الكتب الّتي خلفها مالك فكرا وعلما و تحليلا و عمقا[1]،و هذا الوعي كان كافيا لكي يكتب مالك رواية بنفس المستوى الفني و التحليل العميق لما كان يراه جار في المجتمع الجزائري آنذاك[2].

[1]–موقع الانترنت ،الدكتور نوار عبيدي،مقالات بالعربية،مالك بن نبي رائد الرواية الجزائرية ،ص1،2.

[2]–آراء الدكتور عبد الصبور شاهين،و محمود محمد شاكر،وعبد الله دراز في مقدمة الظاهرة القرآنية.

ذكر مالك بن نبي في مقدّمة الرواية[1] أنه كتبها في غرفة فندق بين سفرتين متقاربتين و ذلك في مدينة عنابة،ويتحدّث مالك عن روايته و كيف صنعها بالرغم من أنه كتبها في عجالة،وذكر أن القصة واقعية خاصة الشخصيتين المحوريتين اللّتين قامت حولهما القصة وهما الفحام و الطفل اللّذان عاشا في مدينة عنابة ،أما الجانب الخيالي الوحيد فيتمثل في الصلة الّتي وضعها بين الأشخاص في المكان والزمان[2].

يُعرف عن مالك بن نبي أنه خاض تجربة إبداعية جديدة تحتاج إلى وعي بهذا الفن،لذلك راح يشرح كيف جمع بين عناصر هذه الرواية و الخطّة الّتي اعتمدها لتقديم أبطاله حتى قال«و إذا كانت هذه التفاصيل المادية للأحداث معروفة لديّ بمنتهى الإتقان،فليست بالمثل فيما يتعلّق بمجراها العاطفي والروحي»[3].

مالك بن نبي هنا ليس مثل أولئك الّذين كتبوا خواطر و مرّوا ،أو جرّبوا حرفة الأدب فدخلوا التاريخ، فنحن هنا أمام أديب يعرف معنى الأدب و يفهم في الرواية الشيء الكثير ،وله دراية بأصول النشر والتوزيع[4].

اختار بن نبي «لبّيك»أمثولة و نموذجا ليؤثر غالبا في البسطاء من النّاس الضّعفاء إلى الله الفقراء إليه الّذين يعدمون سبل الوصول إلى أداء هذه الشّعيرة ، و تجعلهم يحنّون كلّما سمعوا نداء "لبّيك" إلى واد بعيد غير ذي زرع،حيث ترك إبراهيم الخليل ذريّته ليعبدوا الله[5].

هذه هي الصورة الّتي كانت حلما رآه بطل الرواية(إبراهيم)عندما وقف مع الحشود الّتي تنتظر عودة الحجيج و شاركهم دعواتهم و قد غمره دون أن يعي الشعور الّذي يخالج ذلك الحشد،لأنّه كان حينها

[1]-مالك بن نبي،لبّيك حجّ الفقراء،ترجمة د.خوليف زيدان،دمشق،دار الفكر،2009 ،الطبعة الأولى،ص24 ما بعدها.

[2]-المصدر نفسه،ص24.

[3]-المصدر نفسه،ص25.

[4]-موقع الانترنت،الدكتور نوار عبيدي،مقالات بالعربية،مالك بن نبي رائد الرواية الجزائرية،ص2.

[5]-موقع الانترنت،لبّيك حج الفقراء...باكورة أعمال ماك بن نبي و زاد مساره الفكريّ،الثلاثاء11 أكتوبر 2011،16:10،عائشة نجار،ص3.

مخمورا...و هو يرى نفسه في لباس الإحرام يطوف في الكعبة في ذلك المشهد الّذي أعان على تصويره و هو يؤدي مناسكه،مخيالّ يعتبر جزءا من ميراث عائلته المسلمة،أعاد إليه تلك الروح الصوفيّة الّتي ورثها عن أسلافه...حلم تركه في حيرة من أمره حين انتهى بمجردّ استيقاظه من النّوم ليجد نفسه سكيرا لا زالت الأنفاس الأخيرة للخمر تنبعث من فيه ،لكنّ هذا الحلم سيشهد تحققّه في الواقع بعد التجربة الّتي عاناها في دواخل نفسه الّتي ودّع من خلالها تلك الحياة المادية المزرية الّتي كان يعيشها بعدما اقتلع قناع بُوقَرعَة[1]،الّذي لا يحتمل لكي يعود بكلّ بساطة إلى شخصية إبراهيم،ثمّ إلى شخصية(الحاجّ إبراهيم)،بعد قراره في خوض تجربة الحجّ إذ سيشهد فيها منافع له،فتكسبه شعورا بالتّغيير النفّسي الّذي أحسّ به و هو يصعد في عبّارة الحجيج الّتي أعتبرها منقذته من عالم القذارة الّذي تنصّل منه وكأنّه تخطّى مع العتبة الأولى عتبة العالم الجديد مطلقة زفرته«الحمد لله».

هذا ما تحكيه الرواية ببراعة و إتقان،ليبدع راويها في التصوير الرمزي بطريقة أو بأخرى حال الأمّة الضائعة وهي تتلمّس طريق الهداية وتخطو خطوات البداية بصفاء نيّة و إصرار على الوصول...إنّها الخطوات الأولى لتباشير الصبح الجديد الّذي يأمله مالك بن نبي للعالِم الإسلامي بعد أن نزع عنه لباس الاستعمار،والّذي حرص من خلال فكره في البحث عن كلّ ما يمكن له أن يتلقفها لينهض بها من كبوتها المزمنة،لتدخل من جديد في مضمار الحضارة[2].

العمّ محمد رمز يمثّل الأصالة المتجذّرة في الأمة،ويمثل إبراهيم مع انحرافه عن الطريق السليم ،الجيل الّذي احتك و عايش المجتمع الأوربي و تورّط بمعطيات حضارتهم و تداعياتها،الّتي تركته في حيرة من أمره ،فما تعلّمه صغيرا و غاص في أعماقه لا يتناسب بما يطفو على السّطح مع أحاسيسه العميقة وما يحرّكه في مخياله،إنّه الفراغ الّذي يعانيه كلّ امرئ غير مقتنع بعقيدته و مقوّماته الأخلاقية أو كان

[1]-بوقرعة:اللقب الّذي كان يعيّره به صبيان أزقة بونة(عنّابة)،أي«صاحب قارورة نبيذ».

[2]- موقع الانترنت،لبّيك حج الفقراء...باكورة أعمال ماك بن نبي و زاد مساره الفكريّ،الثلاثاء11 أكتوبر 2011،16:10،عائشة نجار ،ص4.

قد تلقّنها عن طريق العادة و التّقليد لكنّه استدرك الأمر و أدّى إبراهيم فريضة الحج،وهو ما يدلّ أنّه مهما حاد المؤمن عن سواء السبيل فإنّ إخلاصه لابدّ أن يعيده إلى الهداية و إن طال زيغه.[1]

كما كان للنّشئ المتمثّل في شخصيّة هادي نصيبا في رواية لبّيك فهادي طفل يتيم يعاني من فقدان الحنان فيتشرّد في الشوارع و يعمل ماسحا للأحذية و قد انتقل هو الآخر في سفينة الحجّاج لكن كمسافر غير شرعي بعد مراهنته لأصدقاء له بأن يستطيع أن يحج لبيت الله الحرام،وارتباطه بإبراهيم وبباقي الحجاج في السفينة الّتي تنقلهم إلى مكة المكرمة غيّر من حاله و جعله يعيش لحظات تنويرية خصوصا بعد خدمته للحجاج ،وكما كان لشخصيّة هادي ضوءاً خاصّاً،اهتّم بن نبي بإلقائه على شريحة من المجتمع ما فتئ ينادي بأن تكون بمثابة رأس الحربة في كل عمل نهضويّ.[2]

في المشهد يصوّر لنا تلك العزيمة الّتي دفعته لينقل نفسه من ولد مشاغب –يراهن أصحابه المشردين أمثاله على أنّ الفقراء بإمكانهم أداء شعيرة الحج–إلى فتى يملك كامل الاستعداد ليصبح رجل حضارة،وهو ما استطاعت أن تترجمه تلك التّنهيدة الّتي أطلقها هادي متأسّفا على انقضاء أوّل صلاة له كان يريدها أن تدوم إلى الأبد،كما في انتظاره لحلول وقتها كالتلميذ الّذي ينتظر موعد الاستراحة بفارغ الصبر،فنموذجا هادي و إبراهيم يبيّنان و بعمق كيف أن رجل الفطرة حين يتحرّك و يأخذ طريقه،لكي يصبح رجل حضارة وإن كان لا زاد له،كما بيّنه تفصيلا مالك في شروط النهضة سوى التّراب و الوقت،وإرادته لتلك الحركة الإرادة الّتي بدت بوضوح مع شعور إبراهيم و ذلك الخوف الّذي أنتجه عند رؤية عمال مراقبة العبّارة،من أن يكون غير مستوفيا للشروط فيحرم من رحلة التغيير الّتي صمّم على اقتحامها[3].

---

[1]–تقديم زيدان خوليف،باريس،جويلية 2007م،الرواية ص18.

[2]–خصّ بن نبي الشباب الفتي بفصل في كتابه«شروط النهضة»تطرق فيه إلى دور الكشافة وما يمكن أن تقوم به من عمليّة إحياء لدور الجيل الناشئ(تقديم زيدان خوليف،نفسه).

[3]–مالك بن نبي،شروط النّهضة،تر:عبد الصبور شاهين،دمشق،دار الفكر،1986م،ص60.

ولم ينس مالك أن يشير إلى وضع المرأة الجزائرية ،فزهرة زوجة إبراهيم و على ما عانته من ويلات وعريدات زوجها الليلية و سلوكه غير السوي الّذي كان يعذّبها خاصّة بعد انتقال والديه إلى الرفيق الأعلى ،إلاّ أنّها بقيت تكنّ له كل الاحترام ،وتتمنّى له الخير و الهداية[1]وفاءًا لوالديه الّذين أوصياها بابنهما و هما على فراش الموت،إلاّ أن تماديه في سلوكه بصورة مستمرة،جعلها تحسم حياتها الّتي لا تحتمل و تترك أمره للعم محمد و يتولّى الاهتمام به،كما كانت مسبحة أم إبراهيم تمثّل بالنسبة لها الرّصيد الثقافي المتوارث عبر الأجيال...ما جعلها تحتفظ بها و ترسلها لإبراهيم عندما قرّر الحجّ،لتعيد إليه ذلك المخيال المتوارث كلما استشعر بحبّاتها بين يديه المسبحة الّتي أعادت إلى إبراهيم نداء الذّكريات العائلية الّتي حفرت في نفسه قيم دينه و أمته و مجتمعه[2].

ناهيك عن الأبعاد الاجتماعية للرواية،والّتي قد نلمسها في شبكة العلاقات الاجتماعية الّتي تعرّف عليها إبراهيم في المركب،نجد فيها مختلف شرائح المجتمع بمختلف مستوياتهم و خلفياتهم و جنسياتهم وتوثّق أسلوب حياتهم في حقبة من الحقب بالرّغم من أنّ روايته جزائرية في أغلب أحداثها،هذه الشبكة الّتي اهتمّ الكاتب بإتقان و حرص على إبرازها و إظهار مدى التعايش الّذي كانت عليه،في مشاهد تصوّر لنا مدى صفاوة و نقاء شبكة العلاقات الإنسانيّة في عفويّتها و بساطتها ،كما أراد أن يبديها لنا من خلال ما كان يقصّه علينا في شهادته،تلك الرّوح الجزائرية الّتي لم تختف من كتاباته،فهي دائما حاضرة و إن كان يكتب للعالم الإسلامي لكنّه ظلّ نموذجا في أصالته ووطنيته،حيث استهلّ أدبه و تراثه الفكري ب«لبّيك»و اختتمتها ب «مذكرات شاهد للقرن» المترجمين لروح بن نبي الجزائرية و ضمن هذه الشبكة الاجتماعية لم يفوّت بن نبي فرصة تصوير مشهد بلفتنا فيه إلى «عقيدة الآخر»[3].

[1]-تقديم زيدان خوليف،نفس الترجمة،الرواية،ص19.

[2]-موقع الانترنت،لبّيك حج الفقراء...باكورة أعمال مالك بن نبي و زاد مساره الفكريّ،الثلاثاء11أكتوبر2011،16:10،عائشة نجار،ص5.

[3]-دراسة أجراها المترجم زيدان خوليف بعنوان عقيدة الآخر عند مالك بن نبي مجلة maghref review، ع 4،1،2004م.

الحوار الديني الّذي دار بين إبراهيم بثقافته الضّحلة مع البّحار الفرنسي-الّذي تطفل على الحجاج بفضول دفعه ليعرف شعورهم-ثمّ تكفّل بإنقاذ مساره أحد المثقفين الجزائريين بعد أن فقد إبراهيم القدرة على ذلك، و كأنّه يريد أن يعبّر عن غيرته في الدّفاع عن دينه و لو بأجوبة عفوّية[1].

عكس هذا المشهد كما يرى فيه مترجم الرواية(زيدان خوليف)ذلك الجوّ الودّي المتفاهم بين المسلم ومخالفه في عقيدته،على اختلاف المبادئ و وجهات النّظر[2]،لكنّنا نجده كذلك بعكس من جهة أخرى أهمّ ما شغل ذهن مالك بن آنذاك و هو مشهد شباب الإسلام الّذين استهوتهم المناقشة الخطيرة بين الدّين و العلم،الّذي كان زبدة ما اهتمّ به في كتابه«الظاهرة القرآنية».كما أنّه و مع جدّية و استعجال الرّسالة الّتي يودّ أن يبعثها بن نبي إلى قارئه،إلاّ أنّها لم تخل من بعض التّنكيت و الطّرافة الّتي هي خاصيّة امتاز بها الجزائري التّبسي و الّتي تعبر في كثير من الأحيان عن هذا المجتمع و طيبته وبساطته و تلقائيّته المعتادة[3]،كما ينقلها لنا في شهادته،واصفا طريقتها في سرد أحداث تجربتها في ممارسة هذه الشّعيرة الّتي هي جزء لا يتجزّأ من المخيال الّذي أراد تصويره في الرواية قائلا:«فقصّت عليّ قصّة حجّها، بكلّ ما تحتاجه الرواية من تنوير في بعض نواحيها،وتظليم في نواحي أخرى...و ما قصّة والدتي إلاّ إحدى القصص الّتي يتناقلها الحجّاج كلّ سنة يحملونها إلى الآفاق الإسلامية».[4]

كما كان يهدف من خلال هذا العمل كما أخبر به،وضع القارئ الأجنبي في أجواء الحجّ في الإسلام،وهو ما أبداه في روايته من فضول البحّارة الفرنسي و تطفّله عليهم بغية اكتشاف الشعور الّذي يستقبلون به أداء شعيرة الحجّ ،كما كان الأمر نفسه حين أحسّ و استشعر ضرورته لمّا وجد زوجته الفرنسيّة تنتظره بفارغ الصّبر و هو عائد من تبسّة يقصّ عليها قصص حجّة أمّه[5].

---

[1]-موقع الإنترنت،لبّيك حجّ الفقراء..باكورة أعمال مالك بن نبي و زادُ مساره الفكريّ،الثّلاثاء11أكتوبر2011،16:10،عائشة بحار،ص6.

[2]-تقديم زيدان خوليف،نفس الترجمة،الرواية،ص20.

[3]-المصدر نفسه،ص20.

[4]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن«الطّالب»،دمشق سوريا،دار الفكر،1993،الطبعة الثانية،ص291،293.

[5]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن«الطّالب»،مصدر سابق،ص297.

أمّا المنهج الّذي سلكه في الرواية،فنجد أنّه يستمد أصوله و جذوره من تأمّله الطويل في غريزة التديّن في فطرة الإنسان،فمن خلال هذا المنهج أمكن لمعاناة بن نبي أن تستلعن لنا و تقف ماثلة أمامنا عبر روايته،فكان ليبدي لنا من خلالها آثار فكرة قريبا ما سيعلن عنها في أوّل كتاب يصدر له في أعقاب هذه الرواية ،معتبرا أن الإنسان المسلوب الحضارة ،عديم القدرة على الإنجاز الحضاري إلاّ إذا تغيّر تغيّيراً جذريّا نابعاً من إرادته الحرّة[1]،ثمّ يخلص الرّجل في تحليله للفكرة الأساس هذه في بناء الحضارة وديمومتها بأن الفكرة الدينيّة تشرط سلوك الإنسان حتّى تجعله قابلا لإنجاز رسالة أي حضارة،لكنّها لا تكتفي بالوقوف عند هذا الحدّ،فهي تحلّ لنا مشكلة نفسيّة اجتماعية أخرى،ذات أهميّة أساسيّة تتعلّق باستمرار الحضارة،فالمجتمع لا يمكنه مجابهة(الصّعوبات)الّتي يواجه بها التّاريخ كمجتمع ما لم يكن على بصيرة جليّة من هدف وجوده[2].

و هو ربما ما فتح إمكان إشراق عنوان«أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة»في فصل خاص في كتابه الموسوم ب«شروط النّهضة»في طبعته الثّانية الّتي جعلها خصيصا له،إذ نجده يفصل هذا الدور للدين في نشأة الحضارة و ديمومتها معتبرا أنّ دورة الحضارة-أية حضارة-لا تتم إلى حينما تدخل التّاريخ فكرة دينيّة معيّنة،وهو لا يقف عند هذا الحد بل نجده يعمق فكرته،وتحليله أكثر حين يبدي المغزى

الّتي يبتغي استهدافها ،من خلال الرواية و هو يحرص على تأكيد مؤثر الدين الّذي يغيّر النّفس الإنسانية،حين يرى كما يقول في الكتاب«أنّ المسألة هنا هي أن توضّح للقارئ كيف يتاح للفكرة الدينيّة أن تبني الإنسان حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة»[3].

و قد استحوذت على فكر مالك بن نبي قضية البحث عن أسباب الانحطاط و القابليّة للاستعمار و إذا حوّلنا استقراء الرواية مع الربط بين القضيتين:التمسك بهوّية من جهة و نبذ القابلية للاستعمار وأسباب الانحطاط من جهة أخرى ستجد أن بن نبي لم يصبّ اهتمامه على الهويّة،بقدر انشغاله

[1]-مالك بن نبي،شروط النّهضة،مصدر سابق،ص70،71.

[2]-المصدر نفسه،ص61،71.

[3]-المصدر نفسه،ص61.

وبحثه أكثر في أسباب الانحطاط فقد تطرّق فيها بحسّه السّليم إلى القيم و التّراث الّذي يحرّك مجتمعا كالمجتمع الجزائري،وبيّن كيف يمكن لنا من خلال ذلك العالم الثقافي أن نصل إلى استعادة المجد القديم الّذي افتقدناه ،لكن دون أن يغفل الإشارة إلى بعض الرواسب الثقافية في فلكلوره بتجذره في تراثه الشعبي ،الّتي اعتبرها من أسباب انحطاطه ومن مسبّبات قابليته للاستعمار،هذه القابلية الّتي كانت أساس اهتمام بن نبي صبّه ضمن تحليل نسق«مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي،مطبوعها وموضوعها،ميّتها ومميتها،أصالتها و فاعليتها...فمشكلته في النّهاية منذ انحطاطه ما بعد عصر الموحدين هي مشكلة أفكار كما يقول في تضاعيف مؤلفاته،بها ينظّم خطاه في ثبات الأديم،ويدفع طاقته في مضاء العزيمة،ويشحذ وسائله في وثيق الإنجاز»[1].

تراثه الّذي ورثه من عصور الحضارة الإسلامية المطبوع الأصيل بات أفكاراً ميّتة، أمّا نماذجه الرّوحية فقد خانتها أفكاره الموضوعة الّتي خالفت نسق النّموذج المطبوع الّذي أرساه العصر الأوّل[2].

بالتالي فهو لم يتوان في نقد الأفكار القاتلة الّتي كان يرى أنّها تقف حجر عثرة أمام النهضة،وتلك الّتي تتواطئ مع المعامل الاستعماري ، و تسهّل له مهمّة التّحكم بمقدراتنا ،من ذلك مثلا انتقاده للزّردات الصوفية الّتي كانت تخدّر العقل الجزائري و تربطه بالأوثان«حيث كان الوثن يسيطر في ظل الزّوايا حيث أرواحنا المتسكعة تذهب لالتماس البركات و اقتناء معجزات الحجاب،وفي كل مرة تختفي فيها الفكرة يهمن الوثن من جديد»[3]،ومن هذه الأوثان الّتي اتفقت وأن بدت في روايته لجوء زهرة إلى (القزّانات)ليتجدّد عندها الأمل في عودة إبراهيم إلى رشده ،أو في استعمال جارة إبراهيم(البوقالة) الّتي تنتظر منها فأل خير يحمل لها خبرا جديدا ...كما كانت الحياة العادية الّتي يعيشها إبراهيم،والأخطاء الّتي ارتكبها ولم يفطن إلى فداحتها،هي ما مثّل له بن نبي في حديثه عن الأفكار مطبوعها وموضوعها،بكونها الأخطاء الّتي تأكل من أسطوانة عالم الثّقافة،وتؤدي به إلى الانحطاط الّذي يستمر

[1]-موقع الانترنت،لبّيك حجّ الفقراء..باكورة أعمال مالك بن نبي و زادُ مساره الفكريّ،الثّلاثاء11أكتوبر2011،16:10،عائشة بحار،ص8.

[2]-مالك بن نبي،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي،تر:بسام بركة،أحمد شعبو،دمشق سوريا،دار الفكر،2002،الطبعة الثانية،ص12.

[3]-المصدر نفسه،ص97.

إلى اللحظة الّتي يقف فيها لحن الأفكار،وتتلف الأسطوانة و تَنْمَحي في نفس كلّ فرد،ويصبح الصّمت تامّا ونزول ردّات الفعل الحماسيّة و ردّات الفعل الرّافضة للأصوات النّشاز،إنّه صمت الأفكار الميّتة[1] فالأفكار الموضوعة حين لا يعود لها جذور في الغلاف الثّقافي الأساسي تصمت بدورها إذ لم يَعد لها ما تعبّر عنه،ثم لأنّها لم تعد تستطيع أن تعبّر عن أي شيء[2] ،بل إنّه كان ليؤكّد من خلال روايته شيئا أكثر من ذلك ،وهو أنّ هذه القيم بإمكانها أن تكون حامية و منجية للشخصيّة و مكوّناتها وهي الّتي ستحمي حضارتنا من الذّوبان و الاضمحلال،ليعدّ دور الدين لا في أصالة فكرته و لكن في فاعليته الّتي تشدّد دائما على أفراد المجتمع لتعيدهم نحو تلك القيم مهما ابتعدوا عنها،ومهما أثرت فيهم دعوات المادّية الفجّة ،تماما كما حدث للحاج إبراهيم،فقد كان يمثل تلك العودة إلى الروحانية و الصفاء بفعل نداء لبّيك[3] ،كما أشار إليها عمر مسقاوي في مقارباته موضحا تأثير كلمة«لبّيك»في روح المسلم:«حين تتقدّم الرّوح على مرامي النصّ تكتسب الأمّة حصانة تراثها في حالة ركوده،وتصبح المصطلحات المغموسة بزيت الإيمان تضيء في ظلمة ضبابيّة واليأس،كما في نور التّجدد و الحياة،إذ الكلمات هي الّتي تستدعي روحها كتلك الرّوح الّتي أنجبت في إبراهيم والمجتمع الفطري...حين نادى المنادي من وراء الغيب:«لبّيك اللّهم لبّيك»فانهمر دمع الحنين في الفقراء في مصطلح الحجّ».[4]

يغدو هدف مالك الأخير من خلال لبّيك هو دفع المجتمع الإسلامي إلى مواجهة العصر الجديد وأن يعطي لأصالة أفكاره فعالية تضمن لها النجاح إنه مدعو لأن يستعيد تقاليده العليا و معها حسّ الفعاليّة كما يركز مالك بن نبي هنا في عودة إبراهيم إلى الجادة،على إعطاء قارئه فرصة التأمل في هذه المرحلة من تاريخ المجتمع[5].

---

[1]-مالك بن نبي،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي،مصدر سابق،ص74.

[2]-موقع الانترنت،لبّيك حجّ الفقراء...باكورة أعمال مالك بن نبي و زادُ مساره الفكري،الثلاثاء11أكتوبر2011،16:10،عائشة نجار،ص8.

[3]-الموقع نفسه،ص9.

[4]-عمر مسقاوي،مقاربات حول فكر مالك بن نبي،دمشق سوريا،دار الفكر،2008،الطبعة الأولى،ص65.

[5]-موقع الانترنت،لبّيك حجّ الفقراء...باكورة أعمال مالك بن نبي زاد مساره الفكريّ،الثلاثاء 11 أكتوبر 2011،16:10،عائشة نجار،ص9.

خلاصة القول أن مفكّرنا قد كشف عن مجموعة من الأسس الّتي ترسّبت في الو**عي الجمعي لشخصية** المجتمع المسلم،وأكّد أنّ من خلالها يمكننا التم**سّك بالقيم الحضاريّة الإسلاميّة لتذكّرنا الرواية بأنّ قيمنا و هويّتنا هي طريق نهضتنا،**وأن عودتنا لتلك الأصول هي الّتي يجب أن **ننطلق منها لرسم حياة و حضارة أصّالية**[1].

لقد استطاعت رواية قصيرة و بسيطة لمفكر كبير أن تولّد كل تلك المعاني الحضارية العميقة إذ أعاننا **على استكشافها و ربطها بمشروعه الفكري ،أمكن** لنا أن نتأكّد أنّ مالكاً لم يبد **أديبا يروي لنا** قصّة أدبيّة و يحبك أحداثها فحسب،وهو الّذي ينعى على العرب انشغالهم بالنّظم الدقيق **والكلمة الأدبيّة** الأنيقة أو نزوعهم إلى الشعر كوسيلة رشيقة مناسبة تخفي مواضع النقص و الاختلال الّتي اعتبرها إحدى مساوىء ما بعد الموحدين.[2]

إبراهيم تاب و عاد ليباشر العمل،وإن كان عمل إبراهيم بسيطا،لكنّ توجيهه الصّحيح يمكن أن يكتمل إذا كان من أهدافه هدف اجتماعي لا كسبا للقوت اليومي فحسب،و هذا العمل وتوجيهه لا يؤتي أكله إن لم يكن مصحوبا بنزعة تحدّي يخالجها نبذ العوامل الداخليّة الكامنة فينا كالقابليّة للاستعمار و الروح الانهزامية و قلّة الفاعليّة، فتحدّي هادي و نقاوة نفس إبراهيم و رغبتهما في التغيير دفعت بهما إلى ابعد الأمصار،**لأنّ عزيمتهما أقوى من أن تقهر.**[3]

---

[1]- موقع الانترنت،لبّيك حجّ الفقراء...باكورة أعمال مالك بن نبي زاد مساره الفكريّ،الثلاثاء 11 أكتوبر 2011،16:10،عائشة نجار،ص9.

[2]-مالك بن نبي،وجهة العالم الإسلامي،ترجمة عبد الصبور شاهين،دمشق سوريا،دار الفكر،2002،ص60،وهو ما ندد به و اسماه بالحرفية في الثقافة في كتابه شروط النهضة،مصدر سابق،ص84.

[3]-الموقع السابق، ص 10.

المبحث الثاني:مذكرات شاهد القرن(الطفل–طالب):

مذكرات شاهد القرن كتاب أخرجه مالك بن نبي عام 1966 بالفرنسية و طبع في الجزائر،**رغبة منه** في إصداره مترجما **باللغة العربية،فعمل** على الترجمة الدكتور عبد المجيد النعنعي مدير فروع **الجامعة** اللبنانية في طرابلس-**لبنان،يروي القسم الأول منه المسمّى** «**الطفل**»مذكراته في الفترة بين 1905 إلى 1930.

أمّا الجزء الثاني فقد صدر تحت عنوان« **الطالب»و هو الجزء الّذي يتحدث** عن مرحلة الدراسة في **باريس ابتداء من** 1930 إلى 1939، وقد آثر الأستاذ مالك رحمه الله –أن يترجمه بنفسه إلى **العربية،**حيث آنس في الترجمة الأولى شيئا من حواجز الصياغة تحول بين القارئ و إحساس المؤلف **الّذي** أودعه في كتابه و هو يصوغه بالفرنسية[1].

مالك بن نبي في مذكراته **شاهد يتحدث إلينا خلف ستار** ،وهو يحاول أن ينقل إلينا تبصّره **بالأحداث** ،وما هذه التفا**صيل الّتي** يقصّها علينا إلا ليجسد رؤيته الفكرية عبرها،**وهي** بصيرة صاغتها **أحاسيس جزائري امتد به عمق الحضارة الإسلامية** إلى حدود الحضارة الغربية الحديثة،**فكان نقطة اتّصال** و تحوّل كما يقول في بداية شهادته[2].

مالك بن نبي يحدثنا عن حدود التلاقي بين **حضارة مندفعة تجتاح ما أمامها ،وحضارة أسلمت تقاليدها للتاريخ** و غدت أجيالها في مهب الريح،**كذلك كانت الجزائر و قد اجتاحها الاستعمار الفرنسي،**لكن الجزائر عينة من عينات ذلك العالم الإسلامي **الّذي** استقال من مهمته التاريخية،**وغدت** بقية التراث أشلاء مبعثرة هنا و هناك ،**لا تصمد أمام طوفان الحضارة الغربية و جحافلها المنتصرة**

[1]-مالك بن نبي،**مذكرات شاهد القرن**،بيروت،**دار الفكر المعاصر**،143،ه/2013م،الطبعة الأولى،ص7.

[2]-**المصدر نفسه**،ص8.

هكذا ينقل إلينا مالك بن نبي صوراً من شهادته،إذ صدقت على أجيال الجزائريين من أبناء جيله،فهي صادقة أيضا على أجيال العالم الإسلامي،والعالم المتخلف بأجمعه منذ بداية هذا القرن[1].

لذا فهو شاهد أحداث هذا القرن فيما يروي ،والشهادة هذه ليست شهادة لمعاناة مجتمع مغلوب على أمره،وهي ليست شهادة على مجتمع لا يدرك لدفاعه فعالية الوسائل فحسب بل إنها أيضا شهادة على ما أرست حضارة الغرب الحديثة من مصطلحات و مفاهيم و منجزات بالمسيرة الإنسانية و هي تنشر ثقافتها و جيوشها[2].

مالك بن نبي-و هو يرى أدق التفاصيل-لا يغفل عن إبراز القيم الأساسية الّتي ما يزال يحتفظ بها رجل الفطرة ،وقد ورثها من أجيال سابقة حفظت التراث و القيم،وهو في الوقت نفسه يطرح أمامنا ثقافت المثقفين ،الّذين انغمسوا في الثقافة الغربية و مصطلحاتها و واقعها،فانقلبوا في حركتهم التّقدمية إلى الوراء ،واتخذوا من السياسة سبيلا إلى قيادة تسير نحو العدم،لأنّهم افتقدوا في ذك الصخب الّذي عانته مجتمعاتنا الإسلامية منذ بداية هذا القرن، سبل الفعالية في المبادرة و الاتجاه و هكذا فاتهم قطار التاريخ[3].هذا الكتاب يحمل إلينا دفء الأصالة،ويهزّنا حين يروي لنا صفاء الراعي و البدوي و وفاء القيم،والتزامه بما استقر في ضميره من تقاليد هي أقرب إلى روح الحضارة و أرسخ في خط التقدم،فالّذي حمله المثقفون الجزائريون من الجامعات و المعاهد الفرنسية،والّذي نقله الاستعمار من الهياكل الإدارية إلى أرض الجزائر،قد أفسد الرؤية و أنقص قيمة الإنسان،وأحل مكان خرافة المرابطي-شيخ الطريقة-خرافة الزعيم،وهكذا تحطمت بمنطق السهولة المبادرات البناءة الّتي بدأتها حركة الإصلاح بقيادة(ابن باديس).

هذا الكتاب يكشف لنا مكونات فكر بن نبي،وهاجسه العميق الّذي رافقه طيلة حياته،إنه هاجس الحضارة و مشكلاتها«و ما كان لبن نبي أن يروي لنا شهادته،لولا أنه قد رغب في تأصيل الأساس

[1]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن،مصدر سابق،ص9.

[2]-المصدر نفسه،ص9.

[3]-المصدر نفسه،ص10.

الفكري لنهضتنا ،وآثر الحقيقة و التزم جانب الصدق و الكفاح حتى أسلم الروح، لم تفتر له عزيمة في بيان و لم يهن له عزم في كشف كل زيف ،ترويج بضاعته في أسواق الثقافة و مراكز التوجيه ،إنه شاهد قرن و مبلغ فيه لما شهد و التبليغ في منعطفات التاريخ رؤية فكرية و روحية معا،في صيغته،وضوح المعالم،و في حرارته شرارة الإقلاع».[1]

طبع الكتاب داران:دار الفكر المعاصر:بيروت-لبنان-و دار الفكر:دمشق-سوريا- صدر القسم الأول باللغة العربية سنة 1969م،و أمّا القسم الثاني فكان سنة 1970م،استهل مالك بن نبي كتابه بتقديم خاص،هو عبارة عن قصة خيالية مفادها أنّ القدر ساق له الكتاب فوجده جاهزا بجنبه و هو يُصلّي بإحدى مساجد قسنطينة ليكون مرجعا تاريخيا لأبناء الجزائر في الحقبة بين 1905 سنة مولده و 1935 سنة انقطاعه عن الدراسة.

تعد هذه المذكرات سجلا أمينا لسيرة فرد جزائري ينتمي إلى بيئة عربية مسلمة و يعتبر المفكر مولده في هذه الفترة1905 استفادة بامتياز لا غنى عنها لشاهد القرن من خلال أحداث متداخلة ومعقدة في الجزائر و في العالم العربي و الإسلامي كجزء من العالم كله[2].

هو شاهد بصر و بصيرة على وجود اتجاهين،آنئذ في الفكر و الواقع لعالمين مختلفين عالم يقوده اتجاهه صوب التقدّم العلمي و التكنولوجي و الهيمنة الاستعمارية للشعوب و احتلال الأوطان ممثلا في فرنسا و احتلالها للجزائر ،وعالم الضعفاء يقوده اتجاهه نحو التّحرر و الإعتاق يحفظ الفطرة و يتمسك بالتراث و يُحيي قيّم الماضي[3].

[1]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن،مصدر سابق،ص10.

[2]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن،دار الفكر المعاصر،بيروت لبنان،دار الفكر،دمشق سوريا1984،الطبعة الثانية،ص15.

[3]-المصدر نفسه،ص14.

قسّم المؤلف مذكراته قسمين:قسم الطفل و يمتد من سنة 1905 إلى غاية 1930،وقسّم الطالب من سنة 1930 إلى سنة 1939،وطلب من القارئ أن يتقبل (هذا الكتاب على أنه أفكار جزائري أراد أن يتحدّث إليه من وراء حجاب محتفظ باسمه لنفسه).[1]

في هذا القسم«الطفل»يتناول مالك بن نبي مذكراته و مواقفه في مدينة قسنطينة في بيت عمه وتحت رعاية و حنان مربيته(بهيجة)أو في منطقة«تبسة»التابعة لها حيث تعيش عائلتها الّتي كانت تجمع بين أفرادها أواصر المحبة و التعاون،كأي عائلة جزائرية بسيطة و تحت وطأة الاستعمار[2].

يستعرض السارد ظروف عائلته و هو ابن 6أو7 سنوات بأنها :عائلة فقيرة هاجر جدّه لأبيه إلى ليبيا بعد ما باع أملاكه ...و تدهورت أحوالهم و قد بقي الأب ردحا من الزمان بلا عمل و لا مورد عيش،ولولا حسن تصرّف الأم بماكنة خياطتها لسد بعض ضروريات المعيشة ،كما أنها كانت حريصة على تعليم ابنها في المدرسة القرآنية الأمر الّذي جعلها تدفع لمعلّم القرآن سريرها الخاص (السّدة)بدل النقود المفقودة،وفاة العم الّذي تبناه في قسنطينة و عودته إلى تبسة(الابتعاد على مربيته و أمه بهيجة).

كانت تربية أبيه له كابحة لجماح الطفل الّذي يريد أن يكتشف العالم الّذي حوه و هو المؤهل إلى ذلك،وأما عند مربيته(بهيجة) فيجد الحرية و الانطلاق لتلبية رغباته الطفلية.[3]

قد أثرت مدينة قسنطينة في حياته في مرحلتي الطفولة و الشباب،يقول:«كانت العودة إلى قسنطينة حدث هام جاء يغير مجرى حياتي»[4].

يقول أيضا في هذا الصدد«لقد تركت قسنطينة:أمي بهيجة و جدي و كلبه بأسى شديد،ولكني حملت معي تلك الإقامة فائدة واحدة،فالأمور بدأت تتصف في تفكيري و ذاتي،ففي تبسة كنتُ أرى

[1]-موقع الانترنت،وقفات مع كتاب مذكرات شاهد القرن للمفكر الجزائري مالك بن نبي،د.شاكر لقمان ،مقالات متعلقة1435/02/12/2013/12/16ه،ص1.

[2]-الموقع نفسه،ص1.

[3]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن،مصدر سابق،ص30.

[4]-المصدر نفسه،ص36.

الأمور من زاوية الطبيعة و البساطة،أما في قسنطينة فقد أخذتُ أرى الأشياء من زاوية المجتمع والحضارة واضعا في هذه الكلمات محتوى عربيا و أوربيا في آن واحد»[1].

كان لتنوع الثقافة التي تلقاها فائدة جليلة في تكوينه،يقول:«هذا الشيخ من الناحية و يقصد عبد الحميد-و مسيو مارتان martin من ناحية أخرى كونا في عقلي خطّين حددا فيما بعدُ ميولي الفكرية».[2]

أما القسم الثاني: قسم الطالب:

يخصّ حياة الراوي الدراسية و السياسية بباريس و بمدن و قرى أخرى في فرنسا مابين 1930 و 1939 أي 9 سنوات، و هو من بلد مستعمر سافر للدراسة استطاع أن يطّلع على ما كان يجري في العالم من أحداث سياسية و تطوّرات اقتصادية و تحولات اجتماعية و ثقافية و تقلّبات عسكرية، بل و تكشّف لديه جليا أمر فرنسا ذو الوجهين، و أيقن بأنه لا سبيل لتحضر الشعوب المستعمرة إلاّ إذا تخلّصت من الاستعمار و لا يمكنها ذلك إلاّ بالتخلّص من القابلية للاستعمار و هي ظاهرة أخطر من الاستعمار ذاته.[3]

مثّل هذا القسم الثاني من الكتاب فترة أقصر من الأولى تسع سنوات سبقت الحرب العالمية الثانية و كانت حافلة هي الأخرى بالأحداث و التحولات غيّرت وجه الحياة في العالم بعد ذلك، و كان صاحب المذكرات يهدف من وراء هذا العمل التأريخ كما يقول:« و ربما يعجب هنا أولائك المثقفون الذين أصبحوا لا يدركون لغة الشعب الجزائري المسلم، إنني لا أكتب هذه المذكرات من أجلهم، ولكن للشعب عندما يستطيع قراءة تاريخه الصحيح، أي عندما تنقص تلك الخرافات التي تعرض

[1]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن،مصدر سابق،ص47.

[2]-المصدر نفسه،ص30.

[3]-المصدر نفسه،ص30.

أحيانا أفلاما كاذبة، و الّتي سيكون مصيرها في صندوق المهملات مع مخلّفات العهد الاستعماري »[1].

كان أبرز حدث في هذه الفترة هو سفر مالك بن نبي إلى فرنسا مرّة أخرى بعد أن سدت في وجهه السبل، قائلا:(وجدت نفسي أقول و أنا متكئ على حافة الباخرة: يا أرضا عقوقا !... تعطين الأجنبي و تتركين أبناءك للجوع،إنني لن أعود إليك إن لم تصبحي حرّة !..).

ترك مالك بن نبي الوطن و الوالدين و الإخوة و الخلاّن و الجيران و تبسة و الشرق الجزائري و الجزائر برّمتها تحت وطأة المستعمر الفرنسي و سرد قصصه الكثيرة و المثيرة، مع شوارع باريس و مع الفندق و مع بنات باريس الطائشات و مع بزّته الخارجة عن الذوق المألوف بلونها المشرق،يقول:« هكذا استقبلتني باريس، بوجه بناتها الطائشات الكاسيات العاريات العارضات لزينتهن و عرضهن دون أي شعور بالإثم. و لكنّ لباريس وجوه أخرى لا يكتشفها المرء عند نزوله. و قد كانت تجولاتي الأولى مجرّد محاولات غير جريئة للتعرّف عليها في العالم الجديد الّذي أصبحت فيه» .[2] لكنّه لم يكن ينظر إلى وضعه الجديد بعين الإنسان العادي بل بعين ثاقبة لأنّ باريس ليست فقط طيشا و فسقا و خمرا بل لها وجهها الروحي المسيحي و الحضاري و العلمي. كانت ذكريات بن نبي بعد وفاة والدته وعودته إلى فرنسا قاسية و كانت تصاحبه دوما صورة الحياة المزرية في الجزائر و صورة الحياة في الغرب الأوروبي و قصصه مع السفارة المصرية و الإيطالية و الأفغانية و الألبانية و غيرها، قصصه مع البوليس الفرنسي الّذي كان يراقب نشاطه و اتصالاته بأصدقائه، و شعوره بخيبة أمله في الحراك الوطني الجزائري آنذاك، إخفاقاته في الامتحانات و في طلبه العمل و في محاولات سفره خارج فرنسا خاصة إلى أرض الحجاز، بؤسه إلى درجة طلبه الموت، هذه الحال يقول فيها الراوي:« إنّ إيطاليا الفاشية لم تعطني الفرصة، و« سوربون » و مدرسة الميكانيكا و الكهرباء ذيّبا رجائي، و الأمين العمودي لم ينشر مقالي في صحيفته، و المؤتمر الجزائري تبخرّ، و خاب ظني في الإصلاح و العلماء المصلحين،

[1]- مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن،مصدر سابق،ص30.

[2]-المصدر نفسه، ص 30.

وأصبحت أتساءل ماذا أفعل؟ بدأ هذا السؤال الّذي طالما تردّد في نفسي بعد خروجي من مدرسة قسنطينة يتردّد على ذهني من دون جواب، و بدأت أشتم في نفسي رائحة الغرق... »[1]

في خضم التحولات الجارية و موقفه منها يقول مالك بن نبي:« و بلغت الأزمة أوجها يوم 27 سبتمبر » ،فنظّمت ذلك اليوم الحركات اليسارية تظاهرة دعا إليها النادي فكنت ممثله، و بدأت في القاعة المكتظة الخطب حسب التقليد المألوف، فأتى دوري فتلخص خطابي في اقتراح: يجب على هذا المؤتمر للقوى التقدمية أن يوجه اليوم برقية إلى الحكومة يطالبها بمنح شعوب الشمال الإفريقي حقوقها، حتى تدخل المعركة من أجل الديمقراطية شاعرة بكرامتها لا بوصفها مرتزقة. في آخر الجلسة قرأت على الحاضرين لائحة التوصيات فلم أجد فيها اقتراحي و لا مجرد التلميح إليه، اقتحمت المنصّة لألفت النظر إلى هذا النسيان و لم أصرح بأنّه تناس، فهاجت القاعة و خصوصا السيدات تهتف لي[2].

و هكذا يسرد لنا بن نبي الأحداث الّتي رافقته عبر مختلف مراحل حياته بإيجابياتها و سلبيّاتها .

[1]- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مصدر سابق،ص 30.

[2]- المصدر نفسه، ص 30.

الفصـــــــل الثالث

الخصائص الفنية لأدب مالك بن نبي

المبحث الأول :الموضوعاتية (المضمون)

المبحث الثاني:قراءة الجوانب الفنية

المبحث الأول:الموضوعاتية (المضمون):

أولا: رواية لبّيك:

كانت لمالك بن نبي ميول سردّية و موهبة تخيّيلية و نزعة فكرّية و أولويات ممارساته الكتابة وهو ما أقرّ به الكاتب مالك بن نبي يوما لأحد أصدقائه قائلا:"لو كنت كاتبا محترفا لاخترت فنّ الرواية والقصّة،فذلك ما يستهويني،و لكنني صاحب قضية و سلاحي هو قلمي"[1].و قد تأصّلت هذه الرّغبة أكثر في مذكرات شاهد القرن (الطفل1965) و(الطالب1970) الّتي حاول فيهما أن يعطي بعض الانطباعات عن مسيرته في الحياة و لكن بأسلوب المفكر الّذي يطرح و يحلل و يستنتج و ليس بأسلوب القاضي أو الروائي الّذي يتتبّع و يقتفي أثر حركة السّرد صعودا و نزولا[2].

و لمالك بن نبي مغامرة إبداعية سردية بعنوان :لبّيك حج الفقراء

(lebbeik le prèlerinage des pauvres)،الّتي كتبها عام 1947 باللغة الفرنسية،ترجمها الدكتور زيدان خوليف إلى اللغة العربية بعنوان "لبّيك حجّ الفقراء"في 2009[3].

و هي قصة تحمل في مضمونها خطابا مزدوجا يتمثّل في:

أولا:لا خلاص لهذه الأمة إلاّ بالعودة إلى جذورها و تمسكها بأصولها العربية الإسلامية ،إذ تبيّن للكاتب بالدراسة و التّجربة أن الأمم لن تتطور و لن تنال حظها من الحضارة ما دامت مسلوبة في حريتها و إرادتها و مهدّدة في هويتها و وجودها الثقافي و الفكري.

ثانيا:الخطاب الثاني موجّه إلى الغرب و هذا ما صرّح به الناشر الفرنسي للرواية فهو يهدف إلى تعريف القارئ الفرنسي على وجه الخصوص بالقيم الرّوحية للحج و أجوائه الشعارية الّتي ترقى بالإنسان

[1]-يومية الخبر الجزائرية (الصفحة الثقافية ،الحوار الّذي أجراه عبد الحكيم قمار مع صديق مالك بن نبي ،الأستاذ الليبي محمد رفعت الفنيش،بتاريخ 2012/01/11،الصفحة 22،العدد 6591.

[2]-قراءة في التّجربة الرّوائيّة عند المفكّر الجزائريّ مالك بن نبي،مجلة الممارسات اللغوية ،تيزي وزو ، الجزائر عدد:24،2014 ،ص185.

[3]-مالك بن نبي ،لبيك حج الفقراء،ترجمة زيدان خوليف،دمشق،دار الفكر ،2009.

المسلم إلى أعلى مراتب الروحانيّة ،الّتي تمكنّه من الإفلات من سطوة الاستبداد المادي من خلال لباسه الأبيض و طوافه و تجرده و تقرّبه إلى الله سبحانه و تعالى[1]

لم يكن مالك بن نبي(الطفل في الجزائر بين قسنطينة و تبسة و الطالب في فرنسا)-حسب مذكراته- طفلا أو طالبا عاديا ،بل كان صاحب فكر و رسالة و كلمة و موقف،و صاحب مشروع فكري نهضوي حضاري،بانت إرهاصاته في طفولته بملاحظاته و محاولات الإجابة عنها و في شبابه بصاحب مشروع تجاوز به أقرانه في الجزائر و تفوّق حتى على النخبة منهم في المدارس الفرنسية ومعاهدها،تكوّن فيها بالعناية الإلهية الّتي هيّأت أسبابه ،فكان إعداده الأولي الإسلامي العربي الجزائري الأصيل المتين حصنا منيعا.

و جاءت سفرياته العديدة من تبسة إلى باريس ذهابا و إيابا على الرغم من الصعوبات و المشاكل الّتي كانت تعوقه ،ثم جاء تكوينه العلمي الرياضي ،ثم تكوينه التقني العملي ،بالإضافة إلى تكوينه الفلسفي و تنوع ثقافته.

بفعل ذلك كلّه تشكّل لديه منهج خاص محكم في التفكير ،و منطق دقيق في التعامل ، وأسلوب مزج فيه بين بعد النظر و الدّقة العلمية و العمق الفلسفي،فكان فعلا مفكر عصره،و ابن خلدون مصره[2].

كتاب مذكرات شاهد القرن هو سيرة ذاتية لمالك بن نبي كتب عن نفسه بأسلوب سهل و بسيط منذ الطفولة إلى الشباب و قسّمه إلى فصلين عندما شعر أنّ حياته تستحق التسجيل و النشر لأهميتها في مجتمعه و العالم و هو يركز على حياته الفردية و تاريخ شخصيته،فهي نوع نثري تميز بطابع أدبي رفيع يتّوفر على سائر شروط النص الأدبي.

[1] - Seuils ,G.genette,ed.du seuil,paris,1987,p88,89.

[2] -موقع الانترنت،وقفات مع كتاب مذكرات شاهد القرن للمفكر الجزائري مالك بن نبي ،د.شاكر لقمان ،مقالات متعلقة،2013/12/16..1435/02/12.

ثانيا: كتاب مذكرات شاهد القرن:

تمكّن بن نبي من استيعاب أحداث عصره في الجزائر و في الوطن العربي و في العالم ، وتعرف أثناء رحلته إلى فرنسا على الوجه الحقيقي الجميل للحضارة العظيمة في هذا الآخر،كما تعرف على الوجه القبيح الكريه الّذي تبرزه في مستعمراتها،وهناك أيضا تعرّف على حفنة من الشباب العربي،و خصوصا المغاربي الّذي رمت به الأقدار مثله تماما[1].

و بعد التخرّج من المدرسة أصبح يخالج فكره سؤال كبير:ما العمل الآن؟لا مجال لليأس من النجاح على الرغم من الفشل و الإقصاء(التوجيه أول المسار غير المرغوب فيه عدل في الشرع الإسلامي،لأن والد كان موظفا في القضاء الإسلامي)(الاتجاه إلى مدرسة اللاسلكي)الباب الّذي فتح لمالك بن نبي فيما بعد آفاقا رحبة في شتى العلوم التطبيقية،و الاستفادة منها في صياغة و تشكيل أفكاره و نظرياته فيما يتعلق بمشكلات الحضارة العديدة و المتنوعة،و منها مشكلة بلاده المستعمر الجزائر،لا وظيفة قبل سن 22،الإخفاق في الدخول إلى الدراسات الشرقية بفرنسا لأسباب سياسية لاعملية يقابلها التحدي و الإصرار (السفر لإكمال الدراسة و للعمل،تجريب العمل في أي مهنة و لو بلا مقابل التجارة)،الحلم بعمل قار،محامي في تبسة،مقاول،صاحب مزرعة،تاجر،السفر إلى تمبوكتو (مالي)، أو أستراليا.

النشاط الدؤوب التنقل بين تبسة و قسنطينة و بينهما و بين عنابة و أفلو و الرحلة إلى فرنسا أكثر من مرة،على الرغم من شظف العيش و قلة ذات اليد،رئيس جمعية"فرنسا و الشمال الإفريقي"،نائب رئيس جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا،مدير بالمركز الثقافي في مرسيليا[2].

[1]- موقع الانترنت،وقفات مع كتاب مذكرات شاهد القرن للمفكر الجزائري مالك بن نبي ،د.شاكر لقمان ،مقالات متعلقة،1435/02/12..2013/12/16..

[2]-موقع الانترنت،وقفات مع كتاب مذكرات شاهد القرن للمفكر الجزائري مالك بن نبي،موقع سابق.

الشجاعة في الدفاع عن أصالته و قيم دينه الإسلامي،لاسيما بعد التحاق الطبقة المثقفة من العالم الإسلامي و العربي بفرنسا،اكتشاف بعد سفرياته المتكررة إلى فرنسا و عودته إلى الجزائر أن المعمر يكيل بمكيالين(مكيال فرنسا الحرية و العدالة و المساواة مع أهلها،و مكيال فرنسا الاضطهاد والتجويع و التفريق و المسخ الديني و الأخلاقي،و تعلم اللغات14 لغة.[1]

و التحصّن بالتراث و الأصالة و بالقيم الإسلامية و هو ضمن مجموعة من الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين، و تأثر بشخصيات بارزة في المجتمع ابن باديس، الشيخ سليمان الإصلاحي، بكتّاب مشاهير أحمد رضا، محمد عبده، الفيلسوف الفرنسي كوندیلا شاتو بريان ،لامارتين كان كثير الاهتمام بالقراءة و المطالعة الّتي تولدت عنده في حانوت بقال المدعو (سي شريف) لكل ما يقع تحت يديه من الصحف الّتي كان البقال يلف فيها سلع زبائنه، ثم تطورت مطالعاته لينتقل إلى الكتب، مثل (رسالة التوحيد لمحمد عبده)، الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق،فاقدات السعادة (pierre lotti , claude farriera) فهو يقول عن مثل هذه المؤلفات« كانت هذه الكتب تصحح مزاجي، ذلك الحنين إلى الشرق تركه في نفسي كتب lotti، و farriera و حتى لامارتين أو شاتوبريان ، فعرفت تاريخ الشرق و واقعه و أدركت بذلك ظروفه البائسة الحاضرة [2]»

و عن كتاب كوندیلا candilla الفيلسوف الفرنسي في علم النفس يقول المفكر« لست أدري أي كسب علمي حصلت عليه مع كوندیلا، إنما هذا الكتاب وضع عقلي و أفكاري و فضولي، أو بالأحرى باتجاه محدّد» [3]

أما عن اهتمامه بالشرق بخاصة فيقول صاحب المذكرات:« لقد بدأ الشرق القديم منه و الحديث يستهويني بأمجاده و مآسيه ، و كان الحديث عنه يبكيني أو يبهرني، إنما في الحالات جميعها يشدني إلى شيء خبئ في نفسي بدأت أدركه في شيء من الصعوبة » .[4]

[1]-موقع الانترنت،وقفات مع كتاب مذكرات شاهد القرن للمفكر الجزائري مالك بن نبي،موقع سابق.

[2]-مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، بيروت لبنان، دار الفكر المعاصر، و دمشق سوريا، دار الفكر،1984 ،الطبعة الثانية، ص 66.

[3]-المصدر نفسه، ص 114.

[4]-المصدر نفسه،ص64.

القدرة على تحليل الأمور بعد حسن المشاهدة كان الطفل يضيق ذرعا من طريقة التلقي أو التلقين في المدرسة القرآنية الّتي لم يخرج منها إلا بسورة« سبّح » على الرغم من معاقبة أبيه له في كلّ مرة على تغيباته عنها، في المقابل إقباله على المدرسة الفرنسية و حبه لأساتذتها و جعل إحداهن في مقام الأم une bill[1].

كانت تربية أبيه له كابحة لجماح الطفل الّذي يريد أن يكتشف العالم الّذي حوله و هو المؤهل إلى ذلك، و أما عن مربيته (بهيجة) فيجد الحرية و الانطلاق لتلبية رغباته الطفلية و أثّرت مدينة قسنطينة في حياته في مرحلتي الطفولة و الشباب، يقول:« كانت العودة إلى قسنطينة حدثا هاما جاء يغير مجرى حياتي » .[2]

و يقول أيضا في هذا الصدد « لقد تركت قسنطينة، أمي بهيجة و جدي و كلبه بأسى شديد و لكني حملت معي من تلك الإقامة فائدة واحدة، فالأمور بدأت تتصنف في تفكيري و ذاتي، ففي تبسة كنت أرى الأمور من زاوية الطبيعة و البساطة، أما في قسنطينة فقد أخذت أرى الأشياء من زاوية المجتمع و الحضارة واضعا في هذه الكلمات محتوى عربيا و أوروبيا في آن واحد » [3].

و في علاقته مع أبناء الأوروبيين يقول:« كان هؤلاء الأوروبيون يستقطبون تفكيري و خاصة طلاب المدارس الثانوية منهم، حين كنت أراهم أيام الآحاد يتنزهون تحت إشراف ناظر مدرستهم... و كان الخيال ينطلق بي معهم، فهؤلاء سيصبحون محامين أو أطباء أو أساتذة، أما أنا فقد حكم علي بأن أكون عدلا » .[4]

تكشف المذكرات عن نضال صاحبها السياسي و في ميدان الحركة الوطنية، كما تكشف عن مواقفه من الاستعمار و من الأحداث و التطورات الّتي عرفتها المرحلة المحلية الجزائرية و الإقليمية العربية

[1]-موقع الانترنت، وقفات مع كتاب مذكرات شاهد القرن للمفكر الجزائري مالك بن نبي، موقع سابق.

[2]-مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مصدر سابق،ص 30.

[3]-المصدر نفسه، ص36.

[4]-المصدر نفسه، ص 51.

الإسلامية و الدولية، و تبين في الوقت ذاته عن رؤاه النقدية في المنهج الإصلاحي السائد و في مواقف التيارات الفكرية و السياسية الجزائرية.[1]

المبحث الثاني: قراءة الجوانب الفنية

أولا :رواية لبّيك:

1-العنوان: يتألف عنوان الرواية من ثلاث وحدات معجميّة نحاول التعامل مع كل وحدة على حده ثم نبحث عن العلاقة المتوارية بين هذه الوحدات مرتبة و في تقاطعها مع متن النص على النحو التالي:

لبّيك: في اللغة هو مصدر نائب عن فعله يستعمل في إجابة الداعي أي إجابة بعد إجابة و تأتي في سياق حركة صوتية مثقلة بالمشاعر الإيمانية الخالصة من البعد المؤمن باتجاه مولاه نحو السماء.

*حجّ : و هو جملة من الأفعال و الأقوال الّتي يقوم بها ضيوف الرحمان مرة في العمر تزكية للنفس و تزلفا إلى الله سبحانه و بهذا يكون الحجّ حلقة وصل و تواصل بين لفظي« لبّيك » المتصل بالسماء و اللفظ الموالي « الفقراء » فإذا علمنا أنّ الفقر يلتصق بالأرض وخاصة في قولهم فقر مدقع بمعنى لصق بالتراب فقرا و ذلا [2] و من هنا نستنتج أن الحجّ هو لحظة تقاطع بين نداء السماء واستجابة الأرض و من جهة أخرى، فهو شعيرة متميزة في الدين الإسلامي عن باقي الديانات السماوية الأخرى، ففيه يتحد المكان مع الزمان فلا حجّ خارج الزمان المحددّ شرعا بالتقويم الهجري ولا مكان خارج الحرم المكي و من خلال اتحاد العنصرين الأساسيين في الحياة ينجذب الخلق في اتجاه عجيب مع حركة الكون الّتي تظهر تجلّياتها في الطواف خاصة و ما يصاحبه مع الإحرام و الوقوف بعرفة مستضعفين أمام ربّ العزّة طلبا للرحمة والمغفرة. و قد عزز الروائي هذا العنوان بمشاهد روحانية يحملها الغلاف تتقاطع في عمقها مع معنى العنوان[3].

[1]- موقع الانترنت، وقفات مع كتاب مذكرات شاهد القرن للمفكر الجزائري مالك بن نبي، موقع سابق.

[2]-لويس معلوف، المنجد في اللغة و الأعلام، بيروت لبنان، دار الشروق، 1975م، ص 220.

[3]-قراءة في التجربة الرّوائية عن المفكر الجزائري مالك بن نبي، مجلة سابقة،ص 186.

و هي مثقّلة بدلالات موحية تختزل في جوهرها مضمون الرواية، ففي وسط اللوحة تعن لنا الكعبة المشرفة الّتي تمثل المركزية الرّوحانية للمسلمين في العالم و هذا مؤشر واضح على « الحجّ » و ينبعث من الكعبة المشرفة نور أبيض كثيف و عارم لدرجة الانبهار في اتجاه السماء و هو ما يمكن تأويله بالتواصل الروحاني من خلال نداء التلبية في قولهم « لبّيك » أما حركة العواطف المغمورة بالنور العارم الّتي تتجسّد في صورة الحجيج بلباسهم الأبيض الناصع المتجرّد من كل إضافة اجتماعية أو طبقية هذا المشهد يعطي انطباعا و كأن هؤلاء الخلق و هم في هيئة الفقراء و لكن الفقراء إلى الله. و بهذه القراءة الأولى و بعد جمع أجزاء الصورة البصرية المتحركة تظهر ملامح العنوان بعناصره الأساسيّة الثلاثة.[1]

و في أسفل هذا النور العارم المنبثق من الكعبة المشرفة تخرج خيول متسللة تعد و نحو الآفاق، فكل هذه المؤشرات الدّلالية تبعث على الأمل و التفاؤل بمستقبل واعد حافل بالخير و العطاء لهذه الأمة.

أما دلالة اللون[2] في هذه اللوحة فهي متعددة ففي الأسفل اخضرار باهت يدل على النّماء و الحياة، فهذا اللون من أكثر الألوان الإيجابية في العادات و القيم العربية و الإسلامية و إلى جانبه اللون الأسود الّذي لم يستطيع مقاومة النور الّذي انتصر عليه، فالسواد رمز الكآبة و الأحزان و قد طرده الله سبحانه من الطبيعة بحيث لا نرى له أثر لا توجد زهرة أو نبتة لونها أسود في الحياة الطبيعية و من هنا يقترن السواد باستعماله كظاهرة منتجة للأحزان و المتاعب و التخلف الحاثم على البلاد العربية و الإسلامية و في الجزء الأعلى من الجهة اليسرى من الغلاف يظهر اللون الأصفر كلون مزاحم لبقية الألوان و تصنف دلالة هذا اللون كلون للغيرة في صورها الإيجابية خاصة إذا تعلق الأمر بالغيرة على الدين و الوطن و بجانب هذا الاصفرار يتراءى لناشئ من منقوشات الزخرفة العربية المتوارية نوعا ما خلف اللون الوردي الّذي يرمز إلى الحلم.[3]

و في الأعلى و من الجانب الأيسر دائما ينزل خط شاقولي على شكل شريط ملون باللونين الأخضر و الأحمر تتوسطهما نقطتان بيضاوان هذه الألوان تخيلنا بدون تردّد إلى هوية الرواية و صاحبها الّتي

[1]- قراءة في التجربة الرّوائية عن المفكّر الجزائريّ مالك بن نبي، مجلة سابقة،ص 188.

[2]-أحمد مختار عمر،اللغة و اللون،القاهرة مصر، عالم الكتب للنشر و التوزيع،1997،الطبعة الثانية،ص164،165،166.

[3]-المجلة السابقة،ص188،189.

تمثل ألوان العلم الوطني الجزائري ،و إذا جمعنا أجزاء الصورة بمختلف أشكالها لتحصّلنا على العلاقة بين المتن و عنوانه الّذي يتمحور أساسا حول الهوية المضطهدة و الجغرافيا المصادرة و الحرية المسلوبة[1].

2- عرفت الرواية أربع مراحل أساسية و هي:

أ-تجمّع حجاج الشرق الجزائري في مدينة عنابة و ركوبهم السفينة باتجاه حلق الوادي(تونس)و ما يصاحب هذا الحدث من مشاعر خاصّة تنتاب المودّعين من الأهل و الأقارب في عرس جزائري يتترّع بالمشاعر الدينيّة الخالصة ، و قد ضيق الاستعمار الفرنسي في بداية الأمر على الجزائريين الراغبين في أداء هذا الركن الخامس من الدين«و أنّ الحجّ السنوي بذرائع مختلفة»[2] .

ب-التحوّل المفاجئ في شخصية إبراهيم المدعو«بوقرعة»عند أهل عنابة و الحاملة لكلّ الخصائص المكانية الّتي تنتسب إليها«فالمكان الروائي هو فضاء معين من طرف الإنسان أولاً و أخيراً»[3]فهو تحوّل من شخصية منحرفة إلى شخصية تائبة و راغبة في زيارة بيت الله الحرام ممّا دفع بالكاتب أن ينحاز إلى إبراهيم و يتعاطف معه بوعي أو بدون وعي من خلال تسهيل إجراءات السفر لحظات فقط قبل«انطلاق صّفارة السفينة».

ج-تتبّع وقائع الرحلة من عنابة إلى تونس إلى قناة السويس بالأراضي و أخيرا البحر الأحمر حيث ترسو السفينة بميناء جدة[4].

و إذا تتبّعنا هذه الأحداث و جدنا تسير في زمن محدّد ،هو زمن الحجّ مع الفترة الّتي أعقبته و بذلك يكون للزمان أيضا دلالته،إذ ألقى بظلاله الروحانية على أحداث الرواية.

[1]-شارل روبير أجيرون،تاريخ الجزائر المعاصرة،ترجمة عيسى عصفور،بيروت لبنان،منشورات عويدات،1982،الطبعة الأولى،ص47.

[2]-المرجع نفسه،ص106،107.

[3]-حسن بحراوي،بنية الشكل الروائي،الدار البيضاء المغرب،المركز الثقافي العربي،1990،الطبعة الأولى،ص89.

[4]-قراءة في التّجربة الرّوائيّة عند المفكّر الجزائري مالك بن نبي،مجلة سابقة،ص189،190.

ج-وصول إبراهيم إلى مكة بعدما صار الحاج و اختار لنفسه عملا مناسبا له في المدينة المنورة ،ولمّا استقرّ به الحال راسل الشيخ محمد في عنابة الّذي كلّفه من بعده بتسوية إجراءات بيع الدار و اقترح عليه أن يتصل بزهرة طليقته الّتي أساء إليها كثيرا في الماضي بسكره،و يحاول أن يتوسّط بينهما ليصلح ما أفسده الدّهر و يحثها على الالتحاق به،هنا في المدينة المنورة و يقوم بتسديد مصاريف سفرها من ثمن بيع الدار إذا هي رغبت في ذلك[1].

أمّا من حيث المكان فتدور أحداث الرواية في أحد الأحياء الشعبية لمدينة عنابة،ثم تنتقل الشخصيات إلى باخرة ستمر على مدينة عنابة لتحمل المسافرين إلى ميناء جدّة لأداء فريضة الحج،في هذين الفضائين يقدّم لنا بن نبي شخوصه وهم:عمي محمد،إبراهيم السكير،و الطفل هادي،أمّا عمي محمد فهو ذلك الشيخ التقي الطاهر الأصيل ذو اللحية البيضاء الّذي يحمل السبحة دائما،و الّذي يقطع صلاته في جوف الليل ليفتح الباب أمام إبراهيم السكير الّذي أزعج الشيخ و الجيران بصراخه،إبراهيم السكير و الفحام يعيش ليلة رهيبة حيث يقرر في لحظة(حلم)الذهاب إلى الحجّ و يدعو الله أن يخلصه من مرضه و ظلاله.

أما هادي فهو ذلك الطفل اليتيم الطائش المتشرّد الّذي قرّر هو الآخر تغيير مسار حياته بالقيام بمغامرة عجيبة و هي الذهاب إلى الحجّ.

إبراهيم و الطفل هادي يلتقيان مع حجاج كثيرين يعيشون مغامرة السفر البحرية بمرورهم على تونس ثم مصر ثم وصولهم إلى جدة أين تنتهي الرواية[2].

إن الوضع الّذي كان يعيشه المجتمع الجزائري أثناء الاحتلال لا يمكن وصف بشاعته جراء القهر والظلم و الفقر و الجهل،ولوصف هذا الوضع اختار مالك بن نبي مظهرين رئيسيين هما:

[1]-قراءة في التجربة الروائية عند المفكر الجزائري مالك بن نبي،مجلة سابقة،ص190،191.

[2]-موقع الانترنت،الدكتور نوار عبيدي،مقالات بالعربية ،مالك بن نبي رائد الرواية الجزائرية،ص3.

1-مظهر إبراهيم الّذي يتميز بخاصيتين :الأولى أنه فحام و الثانية أنه سكير.

2-مظهر هادي ذلك الطفل المتشردّ الّذي يقتات من مهنة مسح الأحذية [1].

فعندما عاد إبراهيم تلك الليلة إلى بيته ثملا لا يقوى على الحراك،فتح له عمي محمد باب منزله الّذي ما هو إلا دكان يصنع فيه الفحم"كانت تتدلى خيوط العنكبوت من خشب السقف الّذي لا يمكن التعرف من خلاله على طبقة كلس الجير الممسوحة لكثرة تراكم غبار الفحم الّذي صبغ المكان هناك من الداخل ،و في ركن منه توجد كومة فحم بجانبها أكياس مملوءة لم تفتح بعد،أما الغربال و ميزان الفحم فقد أكملا تأثيث هذا الجانب من المحل،و في الجانب الآخر وضع الصندوق فوقه الشمعة الّتي لا تكاد تضيء سريرا حقيرا و هو المتاع الشخصي الوحيد في هذا المتجر و الّذي يمثل حجرة نومه فقط،وكان إبراهيم و هو واقف وسط الغرفة بقميصه المدبوغ مع يديه بغبار الفحم،يجسد الروح السوداء لهذا المكان المعتم[2].

بهذا الأسلوب الدقيق يصف لنا مالك بن نبي بيت السكير ،إنه باختصار شديد وضع الجزائر الأسود،و يروي لنا مالك بن نبي ببراعة ذلك التناقض الصارخ الّذي يعيشه إبراهيم و انتقاله بين الثقافة الإسلامية و الأوروبية،و كيف أن إبراهيم غلب عليه الإحساس بأنه ينتمي إلى المجتمع الأوروبي[3].

و هي إشارة واضحة لفكرة القابلة للاستعمار الّتي اشتهرت بها فلسفة بن بني لكن إبراهيم الفحام و السكير يتغير بين عشية و ضحاها إثر حلم رآه ، حيث وجد نفسه يطوف بالكعبة، فقرّر في الصباح أن يغتسل و يلتحق بسرعة بالباخرة المتوجهة إلى جدة على الساعة العاشرة صباحا، و بعد

[1]- موقع الانترنت،الدكتور نوار عبيدي،مقالات بالعربية ،مالك بن نبي رائد الرواية الجزائرية،ص3.

[2]-مالك بن نبي،لبّيك حج الفقراء،ترجمة د.خوليف زيدان،دمشق،دار الفكر،الطبعة الأولى،2009،ص35.

[3]-المصدر نفسه،ص45.

غسله غمره إحساس بأنه تخلص من ضيق كان يعيش في داخله... و فهم أنه كان يلعب « دور شخص بغيض فرض عليه في مسرحية كوميدية بذيئة » [1]

لقد اتخذ إبراهيم قرارا خطيرا في تغيير حياته، ليتخلص من العبودية (الفحم)، و الثقافة الدخيلة (الخمر) ، و يقرر ركوب التاريخ (الباخرة) للعودة إلى الأصول (الحج) و الطهارة و إن كان هذا القرار يبدو و للوهلة الأولى هروبا من الواقع، إلا أنه يحمل في طياته أيضا قرار التغير و الثورة على النفس والمحيط، و رفض الواقع المرير، لقد شعر إبراهيم أنه تخلص من الماضي عندما تأمل براءة وجه زوجته الّتي طلقته جراء انحرافه و هو يختلط مع وجه أمه المشرق و الممتلئ بالرضا.[2]

و عندما يصعد إبراهيم إلى الباخرة يلتقي بحجيج كثر فيشعر أنه امتزج مع مجتمع جديد نقي يرغب في التطهير،و تتسارع الأحداث في الباخرة،وتلتقي الأفكار و تتلاقح الثقافات بين الحجيج و ربان السفينة، و ليحقق إبراهيم حلمه في تغيير نفسه و تطهيرها، حيث يقرّر الاستقرار بالمدينة المنورة ومنها يرسل إبراهيم إلى زوجته زهرة رسالة عن طريق عمي محمد قال فيها« أحس و كأني إنسان جديد وأرى من حولي عالما جديدا أريد العيش فيه إن شاء الله » [3] ثم قال« لقد تركت الفحم ثم الخمر في بونة[4] » أما الطفل هادي فقد كان شعره أشعث، و رجلاه حافيتين، يرتدي سروالا كثرت ثقوبه كغالبية أطفال بونة[5]، وهو يمثل ذلك الفقر المدقع الّذي تعرفه الأسرة الجزائرية حيث تدفع الأطفال إلى العمل القهري خاصة في (الحمالة) في الأسواق و الموانئ، أو مسح الأحذية في الأماكن العمومية.

هذا الطفل استطاع أن يختبئ في إحدى غرف الباخرة، لكن أحد العمال اكتشفه و قرر معاقبته « سوف يوضع في الحبس حيث توجد فئران كبيرة، و لن يخرج منه حتى العودة إلى بونة » [6]. إلا أن

[1]-مالك بن نبي، لبّيك حج الفقراء، مصدر سابق،ص 56.
[2]-المصدر نفسه، ص71.
[3]-المصدر نفسه، ص 55.
[4]- المصدر نفسه، ص 56.
[5]--المصدر نفسه،ص76.
[6]- المصدر نفسه ،ص96.

إبراهيم و بعض الحجيج تدخلوا لإنقاذه، و قرّر المحافظ بكثير من الرحمة أن يرسله إلى العمل في مطبخ الباخرة، ففرح الطفل لأنه حقق أمنيته في الذهاب إلى الحجّ، و قبل ذلك بليلة واحدة كان قد تراهن مع أصدقائه المتشردين حول ركوب الباخرة و الذهاب إلى الحج.فقال لهم متحديا « أنا أستطيع أن أذهب دون أن أدفع أي شيء » .[1] و هكذا اتخذ هنا الولد قراره ليتخلص من اليتم و التشرد والفقر، لقد قرر الطفل تغيير حياته هو الآخر بعدم الانصياع للقهر و القبول به، و إنما باتخاذ أي قرار و لو الفرار في باخرة الحجاج نحو المجهول، و قد نشأت علاقة أسرية وطيدة بينه و بين إبراهيم الّذي قبله كولد له، و قد علمه الوضوء و الصلاة و راح يرشده و يدله على الخير. ففي الرسالة الّتي أرسلها إبراهيم إلى عمي محمد من المدينة المنورة ذكر فيها الطفل قائلا« و قبل أن يصبح بمنزلة ابني، إنه سعيد أيضا إذ ترك علبة مسح الأحذية[2]. »

هذا هو الطفل الّذي يحمل معه أمل العودة إلى أرض الوطن و يواصل رغبة التغيير نحو الأفضل لقد طهر نفسه و يده من مسح الأحذية، و طهر قلبه من الثقافة الأوروبية و تشبع بثقافة الأسرة مع إبراهيم، إنه الأمل و كفى.[3]

من خلال تسلسل أحداث الرواية و تحرّك شخوصها يبدو جليّا أن هناك شخوصا أساسية:

إبراهيم:بطل الرواية هو سكير و فحام يعيش ليلة رهيبة حيث يقرر في لحظة حلم الذهاب إلى الحجّ لأداء فريضة الحجّ و صاروا يدعونه الحاج إبراهيم.

عمي محمد:فهو ذلك الشيخ التقي الطاهر الأصيل ذو اللحية البيضاء الّذي يحمل السبحة دائما، والّذي يقطع صلاته في جوف الليل ليفتح الباب أمام إبراهيم السكير الّذي أزعج الشيخ و الجيران بصراخه.

[1]-مالك بن نبي، لبّيك حج الفقراء، مصدر سابق، ص130.

[2]-المصدر نفسه، ص 156.

[3]-موقع الانترنت، الدكتور نوار عبيدي، مقالات بالعربية، مالك بن نبي رائد الرواية الجزائرية،ص 4.

هادي :فهو ذلك الطفل اليتيم الطائش المتشرد الّذي قرر هو الآخر تغيير مسار حياته بالقيام بمغامرة عجيبة و هي الذهاب إلى الحجّ.

و شخصيات أخرى ثانوية لم تطلّ إلاّ بين الفينة و الأخرى وهي:

الزوجة:زهرة زوجة إبراهيم.

الوالدة:أم إبراهيم.

الحجيج.

الربّان.

هذه الرواية تقوم على اتّحاد ثلاثة عناصر حيوية فيها اتّحاد لا انفكاك له وهي:الزمان و المكان المشاعر الدينية الّتي تجعل الإنسان المؤمن يعيش لحظات قلّما تتكرّر في حياته ،وتحت تأثير هذه الأجواء الموشّحة بالعاطفة الدّينية كتب مالك بن نبي قصته الّتي ابتكر فيها شخصية إبراهيم ذي التقاسيم الجزائرية العنابية و الّذي استأثر بالقسط الأوفر من أحداث الرواية بحوالي الثلثين فإبراهيم قد عرف تدرّجا في السلّم الأخلاقي من "بوقرعة"إلى "سي" إبراهيم في نظر الخالة فاطمة زوجة الشيخ محمد إلى الحاج إبراهيم ،لكن ما يعرف عن هذه الشخصية أنّها تنحدر من أصول محافظة و عريقة إذن فسلوكه الشّاذ لا يعكس نسبه الكريم في نظر الكثير من الأسر العنابية فهو ملازم للسكر والعربدة بياض نهاره و سواد ليله،و في لحظة غير عادية و بعد عودته من إحدى مغامراته الليلية صادف أن سمع أذان الفجر و كأنه يسمعه لأول مرة فأيقظ فيه مشاعر لا عهد له بها من قبل فانساق نحو جامع الباي واقفا أمام الباب يتحسّس شعائر الصلاة عن كثب،إلى أن بدأ المصلون ينصرفون الواحد تلو الآخر،فمنهم من تذكّره ببعض النقود ظنّا منهم أنه متسوّل يريد الصدقة لكنه تخلّى عن هذه الصدقة لغيره ممن يمتهنون هذه الحرفة،ثمّ أسرع إبراهيم إلى أقرب حمام ليتوضأ و يتطهّر و كأنه يسابق الزمن وفي نيته حدث عظيم يفاجئ به الجميع و يشكّل منعطفا مفصليا في أحداث

الرواية ،قرّر إبراهيم و دون سابق إنذار الذهاب إلى الحجّ مع جموع الحجيج المتوجّهين على متن السفينة نحو البقاع المقدّسة ،وقد تعاطف معه الكاتب كثيرا حيث سهلّ له إجراءات السفر في ظرف قياسي ممّا تسبّب في توتر حركة السّرد،كما لوحظ على الكاتب توظيفه بعض القصص القصيرة زائدة عن الحاجة كقصة البدوي التونسي الّذي حاول أن يتسلّق السفينة بكل ما أوتي من قوة و لكن الشرطة منعته من ذلك،أو الطفل هادي العنابي و قصته مع التّسول و مسح الأحذية ،و مغامرته الأخيرة الّتي أوصلته إلى ظهر السفينة و جعلت منه واحدا من المتوجّهين إلى البقاع المقدّسة[1].

قام الكاتب بتوظيف بعض الظواهر و العادات الجزائرية حتى و إن تعارض بعضها أحيانا مع قيم الدين الإسلامي كمبالغة زهرة في زيارتها لبعض أضرحة الأولياء الصالحين،و تردّدها على العرّافات من أجل توبة زوجها،أو ما تقوم به بعض البنات المقبلات على الزواج من طقوس محليّة مثل "البوقالة" أو طريقة توزيع الحجيج على ظهر السفينة إلى مجموعات حسب انتماءاتهم الطّرقية(الطريقة التيجانية و الطريقة القادرية و الأحباب و الإخوان)،و ما يمكن أن نخلص إليه هو أنّ هذه القصة بمثابة شريط وثائقي يضاف إلى ذاكرة المدينة من خلال توبة إبراهيم و رحلته إلى البقاع المقدّسة،و قد شاءت أقدار الرواية أن تضع نهايتها بمجرّد التحاق إبراهيم بالسفينة مخالفة بذلك إرادة الكاتب لأن ما حدث بعد انطلاق السفينة من ميناء عنابة لا يضيف أي شيء جديد يغيّر من مسار الرواية،لاستنفاذ المادة القصصيّة الهزيلة الّتي راهن عليها الكاتب و الّتي تكاد تكون استهلكت كلّها في مدينة عنابة تقريبا ممّا تسبّبت في شلل فاعليتها و صارت الحياة العائمة على ظهر السفينة ضربا من الاستسلام للتعب من طول مشقّة السفر تتخلّلها أحيانا دردشة عابرة،و لم يعد يحرّك هذا الخلق سوى الحاجة إلى الطعام أو القيام بالصلوات المفروضة.

و يبقى المتلقي يتطلّع إلى المصير المجهول للشّخصيات الرّئيسيّة فإبراهيم ذهب إلى الحجّ و لم يعد،في حين بقي أمر استرجاع طليقته زهرة معلقا بعد أن زال سبب طلاقهما،كل هذه الأمور لم يحسم فيها

[1]-قراءة في التّجربة الرّوائيّة عند المفكّر الجزائري مالك بن نبي،مجلة سابقة،ص190،191.

الكاتب في الأخير حتى يرضي بذلك على الأقل فضول القارئ و يستكمل في الوقت نفسه عنصرا أساسيا من العناصر الفنية و الحيوية في البناء الروائي يسمّى "النهاية" حيث ترسو أحداث الرواية ويلفظ السّرد أنفاسه[1]

ثانيا:مذكرات شاهد القرن:

-اكتساب الحسّ القصصي بتقنية السردية انطلاقا من عائلته،من يوم كانت الجدة الحاجة "بايا" الّتي جاوزت المائة سنة تحكي لأفراد العائلة و كان بن نبي يبلغ من العمر 3 أو 4 سنوات بالإضافة إلى ابنتها الحاجة "زليخة" الّتي كانت هي الأخرى بارعة في القص و يعتبرها الكاتب مدرسته الأولى[2].

-سرعة الملاحظة و إطلاق الأحكام فهو يقول عن عادات و تقاليد أهل قسنطينة المبتذلة:"لقد بدأ المجتمع القسنطيني يتصعلك من فوق و يسوده الفقر من تحت"،لأن نظمها التقليدية و عاداتها قد بدأ يعتريها التغيير في الاحتفالات ،والزواج ومراسيم الدفن،و الأعياد،واجتماعات الرقية و طرد الجن وحلقات الذكر عند الرحمانية و التيجانية و خاصة العيساوية ،والعادات الأخلاقية و الاجتماعية قد اعتراها التحول ، لم يعد أهل المنازل يضعون في المشكاة الّتي كانت بجانب الأبواب،طعاما للفقراء حتى ملابس الرجال شملها هذا التطور المتدهور ففي شوارع قسنطينة بدأت تختفي العمائم و البرانس، والملابس المصنوعة من الأقمشة المطرزة[3].

-الكتاب سردي فهو غير مقسم إلى فصول سوى الفصلين الرئيسيين قسم مالك بن نبي كتابه مذكرات شاهد القرن إلى فصلين،الفصل الأول الطفل و الفصل الثاني الطالب (الشباب)،فهو قام بسرد حياته من الطفولة و تناول فيها مواقفه في مدينة قسنطينة في بيت عمه و تحدّث عن رعاية وحنان مربيته (بهيجة) و في منطقة تبسة كانت تعيش عائلته تحت وطأة الاستعمار و يستعرض ظروف عائلته و هو ابن 6 أو 7 سنوات بأنّها عائلة فقيرة و أن أباه كان عاطلا عن العمل و أن

[1]- قراءة في التّجربة الرّوائيّة عند المفكّر الجزائري مالك بن نبي،مجلة سابقة،ص 191،192.

[2]-مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن،مصدر سابق،ص15،16.

[3]-المصدر نفسه،ص16،19.

جده باع كل أملاكه و أن أمه كانت تعمل خياطة لسدّ بعض ضروريات العيش و أنّها كانت حريصة على تعليم ابنها في المدرسة القرآنية الأمر الّذي جعلها تدفع لمعلم القرآن سريرها الخاصّ،و الفصل الثاني (الطالب) يتحدّث مالك بن نبي عن حياته الدراسية و السياسية بباريس و بمدن و قرى أخرى في فرنسا ما بين 1930 و 1939 أي 9 سنوات و هو من بلد مستعمر سافر للدراسة و استطاع على أن يطلع على ما كان يجري في العالم من أحداث سياسية و تطوّرات اقتصادية و تحولات اجتماعية و ثقافية و تقلّبات عسكرية،و اكتشف أمر فرنسا ذات الوجهين في بلادها و في مستعمراتها و أيقن بأنّه لا سبيل لتحضّر الشعوب المستعمرة إلاّ إذا تخلصت من الاستعمار[1].

-عرض الأحداث المستفيض و المتسلسل إن أحداث المذكرات كثيرة و مشوّقة و منظمة من حيث تاريخها و مكانها و شخصيتها فمالك بن نبي يسرد الأحداث متسلسلة من طفولته و كيف عاشها مع عائلته و تعليمه و البحث عن العمل و عن شبابه و سفره إلى فرنسا و دراسته فيها و عن عمله و تعرّفه على أصدقاء جدد.

-عمق الأفكار و وضوحها و سلاستها إن الأفكار في مذكرات مالك بن نبي عميقة لأنّه جاء بأفكار مشوّقة و هادفة لأيّ شخص يقرؤها و واضحة في لغتها و أسلوبها و غير معقدة أي شخص يستطيع قراءتها أديبا كان أو متعلما أو شخصا عاديا و هي سهلة في جملها و فقراتها و أفكارها و في موضوعها "لما تحدث عن عائلته و طفولته و عن العادات و التقاليد الّتي تغيرت في قسنطينة و كذلك عن أهلها و أيضا عن "قسنطينة الّتي ظلت تستقطب تفكيري طيلة سنوات طفولتي و لكن تبسة أصبحت هي الأخرى مجال استقطاب آخر أضاف إلى ذاتي طابعه النفسي أيضا"و كذلك عن تعليمه في مدرسة القرآن و في المدرسة الفرنسية عند معلمته و البحث عن العمل الّذي أصبح هاجسه هو المستقبل ليساعد أسرته و اشتغل في عدة مناصب و سجل نفسه في امتحانات القبول في معهد الدراسات الشرقية[2].

[1]-مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن،مصدر سابق،ص16،19.

[2]-مصدر نفسه ،ص20.

-النقد الموضوعي و المنهجي لرؤى و أفكار غيره عندما تحدّث عن عادات و تقاليد الأهالي كان بن نبي معارضا لإنشاء أحزاب سياسية في الجزائر منتقدا لنشاطاتها في كلّ مرّة تحدث أو كتب فيها عن الموضوع بل إنه كان يرى أن تلك الأحزاب "كانت مسؤولة عن تأخّر الثورة إلى ما بعد الحرب العالمية و المخازن الّتي كانت تصنع فيها تلك السلع بدأت تقفل واحدة تلو الأخرى،و أخذت تظهر أكثر فأكثر في هذه الشوارع البضائع الأوروبية و عادات و تقاليد المجتمع الجزائري لقد ولّت واحدة تلو الأخرى[1].

-بعد النظر في العرض و التحليل و الاستنتاج قام مالك بن نبي أولا بعرض الأحداث و الأفكار في الفصل الأول عن صغره (طفولته) و الفصل الثاني عن شبابه ثم قام بتحليلها حيث شرح تفاصيل حياته في كلا الفصلين ثم قام باستنتاجات في نهاية سرده لحياته حيث قال" وعندما بدأت الأرض الجزائرية تغيب في الأفق،وجدت نفسي أقول و أنا متكئ على حافة الباخرة،يا أرضا عقوقا ،تطعمين الأجنبي و تتركين أبناءك للجوع،إنني لن أعود لكي إن لم تصبحي حرة"[2].

-أسلوب التشويق في العرض ممّا يشد القارئ إليه بدأ مالك بن نبي في عرضه لسيرته الذاتية عندما تحدّث عن طفولته فالقارئ عندما يبحث في قراءة السطر الأول لا يستطيع التوقف فيبدأ ينتقل من سطر لآخر حتى ينهي الكتاب لأن مذكرات حياة بن نبي مشوقة بطريقة تجعل القارئ يتهافت لمعرفة ماذا جرى له من طفولته إلى شبابه ممّا يؤدي إلى التفاعل مع الأحداث كأننا نعيشها و نراها و كذلك نتخيلها و يحث في نفسنا الفضول و التحمس لمعرفة ماذا حدث بعد ذلك.

-استخلاص العبر و الدروس من مدرسة الحياة إن مالك بن نبي تعلّم من الحياة فكان يرى و يتعلّم ويشاهد كيف كانت تعيش عائلته و العائلات الجزائرية ككل في الفقر و الاستعمار و عن تعلمه عندما أنهى تعليمه الابتدائي و الإعدادي و الثانوي و العقبات الّتي جاءت في طريق تعليمه و بحثه

[1]- مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن،مصدر سابق ،ص18،19.

[2]-المصدر نفسه،ص429.

عن العمل فاشتغل في عدة أعمال و لا واحدة نجح فيها ،كانت حياة مالك بن نبي دروس تعلمها من مدرسة الحياة.

-قوة الشعور بالمسئولية و حضورها في سائر أعماله و علاقاته و في حياته ككل:كان بن نبي قدوة وصاحب مسؤولية كبيرة فجميع مؤلفاته و أعماله تتحدّث عن الأشياء الّتي كان يعاني منها الشعب الجزائري مثل الحضارة و الثقافة و المجتمع و المسلم و العالم الاستعماري و المعركة ...[1]

-الوصف الدقيق تلميحا و تصريحا للوجه الازدواجي الّذي يملكه الاستعمار الفرنسي قال بن نبي:"تعرّفت أثناء رحلتي إلى فرنسا على الوجه الحقيقي الجميل للحضارة العظيمة في هذه الأخيرة كما تعرّفت على الوجه القبيح الكريه الّذي تبرزه في مستعمراتها"،كانت سياسة الاستعمار الفرنسي تعرقلّ كلّ نشاط و تكبح كلّ حركة يحاول من خلالها الجزائريون التحرّر من قيود الاستعمار الفرنسي،و أمام هذا الظلم و الضيم كانت عائلة مالك بن نبي تعاني الفقر المدقع كما كان حال كل العائلات الجزائرية في فترة الاستعمار،هجرة الجزائريون من الجزائر إلى طرابلس من عدة مدن تعبيرا عن رفض أهالي البلاد معايشة المستعمرين،و الّذي يعد البذرة الأولى للكثير من الأحداث السياسية الّتي جرت فيما بعد ،وخصوصا لذلك الشعور بضرورة مقاومة المستعمر و الّذي تفجر في أول نوفمبر سنة 1954،و أما على الصعيد الاجتماعي فقد كان تدهور الإطار التقليدي أبلغ في الوضوح ،فبعض النقابات المهنية كنقابة النساجين كانت قد اختفت منذ بعيد فيما ظلت أخرى تقاوم قبل أن يدركها الأفول ،تجمع الأوروبيون الّذي بدأ بالتكاثر شيئا فشيئا و أبناء الجالية اليهودية الّذين أصبحوا فرنسيين دفعة واحدة،فحياة السكان الأصلية أخذت تتقلص لتنعزل في الشوارع الضيقة و زقاق سيدي راشد[2].

مالك بن نبي تحدث في كلا نماذجه الأدبية عن المجتمع الجزائري و كذلك عن الإنسان المسلم الجزائري.

[1]-موقع الانترنت،وقفات مع كتاب مذكرات شاهد القرن للمفكر الجزائي مالك بن نبي ،د.شاكر لقمان،مقالات متعلقة ،1435/02/12/2013/12/16هـ

[2]-مالك بن نبي،مذكرات شاهد القرن،مصدر سابق،ص19،18،16.

خاتمة

خاتمة:

الحمد لله الّذي أعانني على إتمام هذه الرسالة، و أرجوا أن يكون عملي هذا خالصا لوجه الله الكريم، و أن، يكون خطوة في السير على المنهج العلمي الصحيح.

لقد مكنتني دراستي من استخلاص بعض النتائج أوجزها فيما يأتي:

-يعدّ مالك بن نبي من أهم المفكّرين الّذين عرفتهم الجزائر و العالم العربي، و قد ساهمت عدّة مصادر في تشكيل فكره و صياغته أهمّها:

*الثقافة العربية الإسلامية: بما فيها التنشئة الأسرية و المدرسية، و تأثره بحركات الإصلاحات الإسلامية، كما يعدّ القرآن الكريم الدافع الروحي و الأساس الأول في تكوين شخصيته.

*الثقافة الغربية: استمدّ ثقافته من المدرسة الفرنسية كما طالع الصّحف و المجلات الغربية و قرأ للمشاهير و أدباء غربيين.

-كان مالك بن نبي مفكرا يجمع بين الفكر و المنطق و جمالية النص.

-يعدّ شاهدا للقرن، عاش مرحلة الاستعمار و مرحلة التحرّر و الاستقلال معا فواكب الأحداث و التحوّلات الحاصلة في القرن العشرين و ساهم في النهوض بفكر الأمّة.

-و الأدب عنده هو التفاعل الجدّي بين الإنسان و مجتمعه و المركّب الأدبي أو الدين أو الفكرة الدينية هي الّتي تسهم في تفعيل المعادلة الأدبية.

-في تصوير مالك بن نبي أن الإنسان هو العنصر الفعال في العملية الأدبية، به يناط كل تغيير فكري و أدبي في مجتمع بشرط أن يوجّه الثقافة بفكره، و العمل بعمله، و رأس المال بماله.

-يرى أن الرواية تولد من رحم الأمة و أصالتها و قيمها و خصوصيتها الثقافية، و إخضاعها لتحليل العميق و المستوى الفني.

-مالك بن نبي أحد الأدباء المعاصرين القلائل في العالم الإسلامي الّذين خصصّوا حياتهم و جهودهم للنهوض بالأمة و قدّموا عصارة أدبهم في محاولة لفهم المشكلات الاجتماعية الّتي يعني منها المجتمع الجزائري.

-مالك بن نبي لم يكن أديبا و مفكرا محليا و إنما أديبا و مفكّرا عالميا.

-مالك بن نبي يعد قدوة للمجتمع و لهذا جاء برواية لبّيك ليضع بصمة في الأدب و في فن الرواية ككل.

-مبدأ مالك بن نبي الوحيد هو:أن التغيير يبدأ من اصلاح النفس أولا.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

المعاجم:

1. معلوف لويس، المنجد في اللغة و الأعلام، بيروت لبنان، دار الشروق، 1975.

المصادر:

1. الأفغاني جمال الدين و محمد عبده، العروة الوثقى و الثورة التحريرية الكبرى، القاهرة، منشورات دار العرب، 1958.
2. مالك بن نبي، لبّيك حج الفقراء، ترجمة د.خوليف زيدان، دمشق، دار الفكر، 2009، الطبعة الأولى.
3. شروط النهضة،ترجمة عبد الصبور شاهين،دمشق،دار الفكر،1986.
4. وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق سوريا، دار الفكر، 2002.
5. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دمشق، دار الفكر،1979،1399.
6. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة، أحمد شعبو، دمشق سوريا، دار الفكر، 2002، الطبعة الثانية.
7. في مهب المعركة، دمشق، دار الفكر، 1981، الطبعة الثالثة.
8. مذكرات شاهد القرن القسم الأول (الطفل)، دمشق، دار الفكر، 1969، الطبعة الأولى.
9. مذكرات شاهد القرن القسم الثاني(الطالب)، دمشق، دار الفكر، 1970، الطبعة الأولى.

المراجع:

1. أجيرون شارل روبير ،تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، بيروت لبنان، منشورات عويدات، 1982، الطبعة الأولى.

2. أحمد مختار عمر، اللغة و اللون، القاهرة مصر، عالم الكتب للنشر و التوزيع، 1977، الطبعة الثانية.
3. بودية ادريس ، الرؤية و البنية في روايات الطاهر وطار، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، الطبعة الأولى، 2000 م.
4. بحراوي حسن، بنية الشكل الروائي، دار البيضاء المغرب، المركز الثقافي العربي،1990 م، الطبعة الأولى.
5. بن إبراهيم الطيب ، مالك بن نبي و ابن خلدون مواقف و أفكار مشتركة، دار مدني، 2002م.
6. بريون فوزية، مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة، دمشق، دار الفكر، 1431 هـ/2010، الطبعة الأولى.
7. بوشوشة بن جمعة، الرواية العربية الجزائرية، أسئلة الكتابة و الصيرورة، دار سحر النشر، الطبعة الأولى، 1988م.
8. واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب،1986.
9. المهدي فضل الله، سيد قطب في فكره السياسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1979.
10. مسقاوي عمر، مقاربات حول فكر مالك بن نبي، دمشق سوريا، دار الفكر، 2008م،الطبعة الأولى.
11. مخلوف عامر، الرواية و التحولات في الجزائر،دمشق، منشورات إتحاد الكتاب العرب، 2000، الطبعة الأولى.
12. السحمراني أسعد، مالك بن نبي« مفكّرا إصلاحيّا» بيروت، دار النفائس ،1404 هـ، 1984م ، 1406 هـ،1986م، الطبعة الأولى و الثانية.
13. سعد الله أبو قاسم ، الحركة الوطنية الجزائرية، القاهرة، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1977، الطبعة الثانية.

14. عبادة عبد اللطيف، صفحات مشرقة من فكر مالك، باتنة، دار الشهاب، 1984، الطبعة الأولى.
15. عموش عمار، دراسات في النقد و الأدب، دار الأمل، الطبعة الأولى، 1998.
16. فريحات أحمد، أصوات ثقافية في المغرب العربي، لبنان، دار العالمية للطباعة و النشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1964م.
17. ركيبي عبد الله ، تطور النثر الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983،ص 199،200.
18. شاهين عبد الصبور ، مقابلة شخصية معه باللينويز بأمريكا، 6-1978/09/7م، عن فوزية بريون، مالك بن نبي عصره و حياته و نظريته في الحضارة.
19. Seuils.G.genette,ed.du seuil,paris,1987.

المجلات:

1. يومية الخبر الجزائرية (الصفحة الثقافية)، ، بتاريخ 2012/01/11، العدد 6591.
2. مجلة maghref review، ع1،4،2004.
3. مجلة الممارسات اللغوية، تيزي وزو الجزائر، عدد: 24، 2014.
4. مجلة التواصل، العدد 19، ص 03.
5. مجلة التذكير، جامعة الجزائر، العدد6، رجب 1410هـ، شباط فبراير 1990م.

مواقع الانترنت:

1. مالك بن نبي، الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة.
2. الدكتور نوار عبيدي، مقالات بالعربية، مالك بن نبي رائد الرواية الجزائرية

3. لبّيك حج الفقراء.... باكورة أعمال مالك بن نبي و زاد مساره الفكّري، الثلاثاء 11 أكتوبر 2011 ، 16:10 ، عائشة نحار.
4. وقفات مع كتاب مذكرات شاهد القرن للمفكر الجزائري ملك بن نبي، د.شاكر لقمان، مقالات متعلقة 2013/12/16 ، 1435/02/12هـ.

الملخص:

اشتهر مالك بن نبي بآرائه الفكرية و الفلسفية و تحدّث عن شروط النهضة، و أوقف حياته لإصلاح أوضاع الأمّة و المضيّ بها قدما نحو التطوّر و الازدهار. و لم يغفل الأدب فقد كان لهذا الأخير نصيب في نتاج المفكر بحيث خلد لنا رواية« لبّيك » ، و كذا سيرته الذاتية في « مذّكرات شاهد القرن» و هما مؤلّفان أدبيان بامتياز.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي – أديب – رواية لبّيك – مذّكرات شاهد القرن –.

Résumé:

Malek ben nabi est mieux connu pour son point de vue intellectuel et philosophique et sur les termes de la renaissance , et a sacrifié sa vie pour réparer la situation de la nation et de le faire avancer vers le développement et la prospérité. Et ne pas perdre de vue la littérature a été la part de ces derniers dans le produit du penseur qui nous immortalisé roman « lebbeik »,ainsi que son autobiographie dans les mémoires « témoins d'un siécle » et sont deux oeuvres littéraires par excellence.

Mots clés : Malek ben Nabi - écrivain - roman de lebbeik - mémoires d'un témoin siècle.

Abstract:

Malek ben nabi is better known for his intellectual and philosophical point of view and on the terms of the rebirth,and has sacrifuced his life to repair the situation of the nation and to make it progress towards development and prosperity. And not lose sight of the literature was the part of these in the product of the thinker that we immortalized novel lebbeik, as well as autobiography in the witnesses of a century and are two literary artworks by excellency.

Keywords: Malek ben nabi–writer-roman of lebbeik-memories of a witness century .